ابن قتيبة ودفع مطاعن بلاغية حول نظم القرآن الكريم من خلال كتابه : تأويل مشكل القرآن

محمد سويفي محمد سويفي السمين
قسم البلاغة والنقد ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، أسيوط ، مصر .
البريد الإلكتروني : mohammedswify.47@azhar.edu.eg

الملخص :
تناول هذا البحث ردود ابن قتيبة على الطاعنين في بلاغة القرآن الكريم ونظمه ، وما يصفون به القرآن من تناقض واختلاف ، ولقد أسس منهجه في كشف هذه الطعون على قاعدة مسلمة ، وهي أن القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين ، فما كان من لسان العرب وطرائق تعبيرها وأساليبها وخصائصها فهو من طرائق النظم القرآني وأساليبه وخصائص بيانه ، وقد حاول البحث أن يبرز جهود ابن قتيبة في رده لهذه الطعون ، وذلك من خلال عرضها وتأصيلها ومناقشتها بالقبول تارة ، والرد تارة أخرى معتمدًا في ذلك على ما نطق به العرب أيضًا ، وما ذهب إليه العلماء السابقون عليه والمعاصرون له واللاحقون به أيضًا ، ومن نتائج البحث : إبطال ابن قتيبة دعوى الطاعنين الذين أنكروا في القرآن لاتهامه بالكذب الذي يقوم على تغيير الحقيقة ، ومن ذلك أيضًا ما أخذه البحث على ما وقع فيه بعض القدماء ومن تلاهم من تطبيق بعض قواعد المبالغة – وعلى وجه التحديد الغلو – على النظم القرآني ، والسبب الذي أوقعهم في هذا أن بعض ما ذهب إليه ابن قتيبة في هذا الموضوع ارتضاه العلماء من بعده .

الكلمات المفتاحية : ابن قتيبة ، النظم القرآني ، الاستعارة ، التأويل القرآني .

Ibn Qoutaiba And The Revocation Of The Rhetorical Libels Of The Qura'anic Arrays Through His Book "The Explanation Of The Qura'anic Problem"

Mohammed Soayfi Mohammed Soayfi Al Sameen

Department of Rhetoric and criticism , Arabic Language college , AlAzhar University , Assuit , Egypt

Email : mohammedswify.47@azhar.edu.eg

Abstract :

This research explains Ibn Qutaiba's replays to the libelants of the Qura'anic phrasemaking and arrays , and their descriptions of it as paradoxical and different . The approach of this study was based on an Islamic rule which is that "the Qura'an has come down in a manifest Arabic tongue" , because the Arabic language and its expressions' techniques, patterns , and characteristics were originated of the diction of the Qura'anic composition , its style, and eloquence's properties . The study also sought to emphasize Ibn Qutaiba's efforts to refute these slanders through viewing it , establishing its origin , and discussing it positively in a time , and confuting it in another , relying on the language used by the Arabs , and the approach used by the former linguists and the succeeding ones . It is the

search results : Ibn Qutaiba's abolishment of the libelant's sever attack of the Qura'an for falseness and changing facts . It also involved showing the former scientists' and their followers' mistakes through applying some intensiveness rules , especially exaggeration , on the Qura'anic composition . The reason that caused these mistakes is that some of what Ibn Qutaiba has discovered was approved by the latter scientists .

Keywords : Ibn Qoutaiba ' Qura'anic Composition ' Metaphor ' The Explanation of the Qura'anic

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل لـــه عوجـــا ، والصـــلاة والسلام على سيدنا محمد الذي ختم الله به الرسالات ، وأيده بالمعجزات ، وأنزل عليه كتابا كريما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

" أنزله شاهدًا لصدق دعواه بكمال بلاغته ، معجزا لدهماء المصاقع عـــن إيراد معارضته ، إعجازًا أخرس شقشقة كل منطيق ، وأظلم طرق المعارضة فمـــا وضح إليها وجه طريق ، حتى أعرضوا عن المعارضة بالحروف إلي المقارعـــة بالسيوف ، وعن المقاولة باللسان إلى المقاتلة بالسنان ، بغيًا مـــنهم وحســـدًا ، وعنادًا ولددًا ، وعلى آله وأصحابه الأئمة الأعلام ، وأزمة الإسلام ".[1]

وبعـــد ،،،

فمنذ أن تنزل القرآن وخصومه لا يتركـــون فرصـــة يطعنـــون فيـــه إلا وانتهزوها ، وقد حكى القرآن كثيرًا من مطاعنهم ، وفندها بحجج دامغـــة ، وقـــد تجددت مطاعن الأعداء فى القرآن فى الأزمنة المتتالية ، ولكنهـــا كانـــت تعلـــو أصواتها فى أوقات ضعف الولاة ، ونشاط الزنادقة والملحدين .

وقد تنوعت هذه الطعون حول العقيدة ، والشريعة ، والتـــاريخ ، ونظـــوم القرآن الكريم ، وغيرها .

ولقد قيض الله ــ عزوجل ــ فى كل عصر من يدفع به عن كتابه الكـــريم ضد أعدائه الطاعنين ، سيما فى الدولة العباسية التى كثر فـــى عهـــدها هـــؤلاء الطاعنون .

---

(١) ينظر : مفتاح العلوم للسكاكي ص٥ ، تحقيق : نعيم زرزور ، طبع : دار الكتـــب العلميـــة بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـــ / ١٩٨٧م .

ويأتي الإمام ابن قتيبة المتوفى ٢٧٦هـ (رحمه الله) فى طليعة هؤلاء العلماء المرابطين على ثغور الإسلام ، وكان معنيًا بالدفع المطاعن الأسلوبية حول القرآن الكريم فى كتابه ــ تأويل مشكل القرآن ــ .

ولقد أسس العلامة (رحمه الله) منهجه فى كشف هذه الطعون على قاعدة مسلمة ، وهي أن القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين فما كان من لسان العرب ، وطرائق تعبيرها ، وأساليبها ، وخصائصها فهو من طرائق النظم القرآني ، وأساليبه وخصائص بيانه .

وفى ضوء هذا ربط " ابن قتيبة " معرفة فضل البيان القرآني بالرسوخ فى معرفة لغة العرب ، وفضلها ، وافتنانها ، وخصائصها .

وعليه : فمن كانت معرفته بلغة العرب ضعيفة ، أو مضطربة فإنه غير مؤهل فى النظر فى بيان القرآن الكريم ؛ لأنه لم يُحَصِّل لهذا العلم عدته ، ويكون كلامه فى القرآن الكريم لغوًا لا يلتفت إليه أهل العلم ، ولا يشغلون بدفعه ، ورده وكشف زيفه ؛ إذ أنه قاعدتهم الشهيرة : " لا يراد خطأ إلا من له صواب يؤخذ عنه فى هذا العلم ، فإذا لم يكن أهلا لأن يؤخذ عنه هذا العلم ، فلا يرد خطأه ، بل يهمل ، ويطرح ، حتى لا يرفعه رد كلامه إلى مصاف العلماء .

ولقد اضطر العلماء ــ أحيانًا ــ لبيان فساد كلام هؤلاء إذا خافوا أن يؤثر كلامهم فى ضعاف العقول ، أو من لم تكن لديه معرفة بمبادئ هذه العلوم التى خاض فيها هؤلاء الجاهلون الملحدون .

وعلى هذا النهج سار ابن قتيبة كما يبين من قوله :

" وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله " بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه

بالتناقض ، والاستحالة ، واللحن ، وفساد النظم ، والاختلاف .

وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحدث الغر ، واعترضت بالشبه فى القلوب ، وقدحت بالشكوك فى الصدور ...

فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألفت هذا الكتاب جامعًا لتأويل مشكل القرآن " . (١)

ففي هذا النص الفاتح وضح الإمام السبب الذي دفعه إلى التفكير فى هذا الكتاب ، حين أثار الملحدون ما أثاروا ، وأنهم لغوا فيه وهجروا ، وأن أفهامهم كليلة ، وأبصارهم عليلة ، وأن نظرهم مدخول ... وأن عللهم الواهية لا تميل إلا الضعيف الغمر ، والحدث الغر ، وأن راسخي العلم فى عافية ومنجاة ، من هذا كله ، ولكنهم يجب عليهم البيان عند استشراف الخطر ؛ لكيلا تعترض شبهة قلوب المسلمين ، ولا ينقدح شك فى صدر من لا علم له من أهل الإيمان .

وقد حاول هذا البحث المتواضع أن يبرز جهود ابن قتيبة فى دفع المطاعن البلاغية التي وجهها هؤلاء الملحدون إلى القرآن الكريم وجاء بعنوان :

" ابن قتيبة ودفع مطاعن بلاغية حول نظم القرآن الكريم من خلال كتابه : تأويل مشكل القرآن" .

وقد جاء هذا البحث فى مقدمة ، وتوطئة ، ومبحثين رئيسين ، وخاتمة وفهارس .

في المقدمة : أشرت إلى أهمية هذا الموضوع والبحث فيه .

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢ ، ٢٣ ، شرح السيد أحمد صقر الطبعة : الثانية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م طبع : دار التراث القاهرة.

وفي التوطئة : عرفت بابن قتيبة من حيث النسب والمولد والوفاة ، والمكانة العلمية .

أما المبحث الأول : فقد تكفل بتأسيس القواعد التى سوف يبنى عليها ابن قتيبة ردوده على الطاعنين .

وشمل :

مذهب ابن قتيبة فى الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، وخصائص اللغة العربية ، والباعث على تأليف كتاب : تأويل مشكل القرآن ، ومصادر مادته .

وأما المبحث الثاني : فقد تكفل بحكاية أقوال الطاعنين فى القرآن ورد ابن قتيبة عليها .

وشمل :

أولًا : حكاية ابن قتيبة لأقوال الطاعنين فى القرآن الكريم بالمجاز وجاء فيه :

١ــ مفهوم المجاز عند ابن قتيبة .

٢ــ غلط كثير من الناس فى تأويله كأهل الكتاب مثلا ورد ابن قتيبة عليهم .

٣ــ رأى ابن قتيبة فى قول الله وكلامه للملائكة ، والنحل ، والسماء ، والأرض ، والجنة ، والنار ، وهل يمكن حمل مثل هذا على الحقيقة ؟

٤ــ رد ابن قتيبة على الطاعنين فى القرآن بالمجاز .

ثانيًا : دفع مطاعنهم حول بعض الاستعارات فى القرآن الكريم ، ورأى ابن قتيبة فى تحديد مفهوم الاستعارة .

ثالثًا : المبالغة ورد ابن قتيبة على الطاعنين فى بعض الآيات القرآنية وموقف ابن قتيبة مما يظن فيه أو يقال عنه إن فيه مبالغة أو غلوا .

رأى أبي هلال العسكري فى هذا اللون تأثر بعض المتأخرين بما ذهب إليه ابن قتيبة ، ورد بعض أهل العلم من المعاصرين عليهم .

رابعاً : قضية التكرار فى القرآن سواء فى قصصه أو فى صياغته وألفاظه ورد ابن قتيبة على الطاعنين فى القرآن بالتكرار .

خامساً : الكناية والتعريض ، وفيه بين البحث مفهوم الكتابة عند ابن قتيبة وأنه يدخل تحت باب الكناية اللغوية ، وأن هذا لا يدخل تحت ما اصطلح عليه البلاغيون بعد ذلك .

سادساً : باب التناقض والاختلاف .

أما الخاتمة : فقد تضمنت أهم نتائج هذا البحث .

هذا وإني لأضرع إلى ربي جل فى علاه أن يكتب لعملي هذا التوفيق والسداد ، وأن أكون قد وفقت فى عرض كلام ابن قتيبة وفهمه حول هذه المطاعن ورده عليها .

وإلاّ فحسبي أني اجتهدت والمجتهد لا يحرم الأجر وإن أخطأ .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

توطئـة : ابن قتيبة

" ترجمة وتعريف "

نسبـه :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوي ، وقيـل : المـروزي النحوي اللغوي الكاتب . (١)

أما مكان ولادته فقد اختلف فيه فقال البغدادي : (قيل : إن أباه مـروزي أما هو فمولده بغداد ، وأقام بالدينور مدّة فنسب إليها) . (٢)

بينما ذهب ابن النديم إلى أنه ولد بالكوفة يقول (أبـو محمـد عبـد الله ابن مسلم بن قتيبة الكوفي مولده بها) وإنما سمى الدينوري لأنه كـان قاضـي الدينور . (٣)

وإذا كان هناك اختلاف فى المكان الذى ولد فيه ابن قتيبة فإني أرى شبه إجماع على السنة التى ولد فيها فقد ذكروا أنه ولد سنة ثلاث عشرة ومأتين . (٤)

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣ / ١٧٠ ، طبع : المكتبـة السـلفية المدينـة المنـورة ، ووفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان ٣ / ٤٢ ، تحقيق د/ إحسان عباس ، طبع : دار الثقافة ــ بيروت ، لبنان ١٣٩٧ / ١٩٧٧م ، وبغية الوعاة فى طبقات اللغـويين والنحـاة للسيوطي ٢ / ٦٤ ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع : دار الفكر ــ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، والفهرست لابن النديم ص١١٥ ، نشر : دار الفكر .

(٢) تاريخ بغداد ٣ / ١٧٠ .

(٣) الفهرست ص١١٥ .

(٤) ينظر : وفيات الأعيان ٣ / ٤٣ ، وبغية الوعاة ٢ / ٦٣ .

شيوخه وتلاميذه :

ذكر البغدادي أنه تتلمذ على أبي إسحاق محمد بن راهويه ، ومحمد بن زياد الزيادي ، وأبي الخطاب زياد بن يحيى الحسائي ، وأبي حاتم السجستاني .

وروى عنه ابنه أحمد ، وعبد الله بن عبد الرحمن السكري ، وإبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ ، وعبد الله بن أحمد بن بكير التميمي ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي . (١)

وقد ذكر أكثر من هذا وبشئ من التفصيل محقق كتاب تأويل مشكل القرآن السيد أحمد صقر . (٢)

مصنفاته :

قال ابن خلكان عن ابن قتيبة : (وتصانيفه كلها مفيدة منها ما تقدم ذكره ومنها : غريب القرآن ، وغريب الحديث ، وعيون الأخبار ، ومشكل القرآن ، ومشكل الحديث ، وطبقات الشعراء ، والأشربة ، وإصلاح الغلط ، وكتاب التقفية وكتاب الخيل ، وكتاب إعراب القراءات ، وكتاب الأنواء ، وكتاب المسائل والجوابات ، وكتاب الميسر والقداح وغير ذلك) . (٣)

وقد عرض محقق كتاب تأويل مشكل القرآن هذه المؤلفات ، بشئ من التفصيل . (٤)

---

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٧٠ .

(٢) تأويل مشكل القرآن مقدمة محقق الكتاب ص٣ ــ ٧ ، ص٣٥ ــ ٣٨ .

(٣) وفيات الأعيان ٣ / ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) تأويل مشكل القرآن مقدمة محقق الكتاب ص٧ ــ ٣١ .

وفاتـه :

على الرغم من عدم الاختلاف فى السنة التى ولد فيها ابـن قتيبـة فقـد اختلفوا فى السنة التى توفى فيها ، ذكر البغدادي أنه توفى فى أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين . (١)

وذكر السيوطي أنه توفى فى سنة سبع وستين ومأتين . (٢)

وابن الأثير الجزري قال : مات فجأة أول رجب سنة ست وسبعين ومأتين وقيل : سنة سبعين ومأتين . (٣)

وقد رجح ابن خلكان أنه مات سنة ست وسبعين ومأتين .

فقال : (وتوفى فى ذي القعدة سنة سبعين ، وقيل سنة إحدى وسبعين ، وقيل : أول ليلة من رجب ، وقيل : منتصف رجب سنة ست وسبعين ومـأتين ، والأخير أصح الأقـوال) . (٤)

وإنما رجح ابن خلكان هذه السنة ؛ لأن البغدادي ذكـر أن أبـا القاسـم إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ تلميذ ابن قتيبة قـال : " إنـه أكـل هريسة فأصاب حرارة ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغمى عليه إلى وقت الظهـر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ فما زال يتشهد إلى وقت السحر ثم مات ، وذلـك أول

---

(١) تاريخ بعداد ٣ / ١٧٠ .

(٢) بغية الوعاة ٢ / ٦٤ .

(٣) اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير الجزري ٣ / ١٥ ، دار صادر بيروت سنة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

(٤) وفيات الأعيان ٣ / ٤٣ .

ليلة من رجب سنة ست وسبعين " . [١]

وهذا ما مال إليه محقق كتاب تأويل مشكل القرآن [٢] ، وأميل إليه أيضًا لأن هذا التحديد صدر من تلميذه ، كما ذكر البغدادي .

أما عن سبب وفاته فهناك إجماع على ما ذكره البغدادي من أنه أكل هريسة ثم صاح صيحة شديدة ثم أُغْمِيَ عليه إلى وقت الظهر ، ثم اضطرب ساعة ثم هدأ فمازال يتشهد إلى وقت السحر ثم مات . [٣]

وإن كان البغدادي نقل عن البعض أنه مات فجأة صاح صيحة سمعت من بعد ، ثم أغمى عليه ومات ، وهذا ما ذكر ابن الأثير الجزري أيضًا . [٤]

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٧٠ ، ١٧١ .
(٢) تأويل مشكل القرآن مقدمة المحقق ص٣٩ .
(٣) ينظر : وفيات الأعيان ٣ / ٤٣ .
(٤) تاريخ بغداد ٣ / ١٧٠ ، ١٧١ ، اللباب فى تهذيب الأنساب ٣ / ١٥ .

المبحث الأول

مذهب ابن قتيبة في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم

والأسس التي بنى عليها ردوده على الطاعنين

أولا : مذهب ابن قتيبة في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم :

بدأ ابن قتيبة كتابه بمقدمة يفهم منها مذهبه في الإعجاز ؛ إذ يقرر أن القرآن الكريم معجز بتأليفه البديع ونظمه العجيب وتلاوته التي لا تمل على طول الترداد والتكرار ، فيقول : " وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبان بعجيب النظم عن حيل المتكلفين ، وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة ومسموعا لا تمجه الآذان ، وغضا لا يخلق على كثرة الرد ، وعجيبا لا تنقض عجائبه ، ومفيدا لا تنقطع فوائده ، ونسخ به سالف الكتب ، وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " أوتيت جوامع الكلم " [1] ثم عرض بعض الآيات القرآنية التي حوت الكثير من المعاني في القليل من الألفاظ ، والتي عدَّها البلاغيون بعده من باب الإيجاز، وعلى وجه التحديد (إيجاز القصر) وذلك كقوله تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ [2] .

فيقول : " كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم ؛ لأن في " أخذ العفو" صلة القاطين والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين .

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣ ، ٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

وفي الأمر بالمعرف : " تقوى الله ، وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات " ... وفي " الإعراض عن الجاهلين " : الصبر ، والحلم ، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج " . (١)

وقوله تعالى : " إذا ذكر الأرض فقال : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٢) كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر ، والحب والثمر والحطب ، والعصف واللباس ، والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان ، والملح من الماء .

وينبئك أنه أراد ذلك قوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ " (٣)

ثانيا : **خصائص اللغة العربية** :

يرى ابن قتيبة أنه لا يعرف فضل القرآن ، ولا يدرك بلاغته إلا من رسخ في معرفة لغة العرب وافتنانها في أساليبها ، وخصائص التعبير فيها .

يقول : " وإنما يعرف " فضل القرآن ، من كثر نظره " واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات ؛ فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيب من العارضة والبيان ، واتساع المجال ، ما أوتيته العرب خصيصي من الله " . (٤)

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٤ ، ٥ .

(٢) سورة النازعات الآية ٣١ .

(٣) سورة النازعات الآية ٣٣ ، وتأويل مشكل القرآن ص ٥.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٢.

فابن قتيبة يرى أن العرب كانوا يفتنون في أساليبهم ، وفي طرائق التعبير عن مرادهم ، وأن كلامهم دوما لم يسر على طريقة واحدة ، ولم يأت من واد واحد ، فالخطيب منهم مثلا إذا ارتجل كلاما في نكاح أو حماله [١] ، أو تحضيض أو صلح ، أو ما أشبه ذلك لم يأت به من واد واحد ، بل يَفْتَنَّ ، فيختصر تارة إرادة التخفيف ، ويطيل تارة إرادة الإفهام ، ويكرر تارة إرادة التوكيد ، ويخفى بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين ، ويشير إلى الشيىء ويكنى عن الشيء .

وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد وجلالة المقام . [٢]

كما أنه يرى أن اللغة العربية خصت بخصائص لا توجد في غيرها من اللغات ؛ فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان ، واتساع المجال ما أوتيته العرب ، ويذكر الإمام ابن قتيبة منها :

ما خص الله اللغة به العربية في حروف هجائها ، وأن ألفاظ العرب مبنية على ثمانية وعشرين حرفا ، وهي أقصى طوق اللسان ، وألفاظ جميع الأمم قاصرة عن " ثمانية وعشرين " . [٣]

وإن كان هناك أمم لديها أكثر من هذا ، ولكن في أبجية العربية خصائص ما ئزة ليست في غيرها .

---

(١) الحمالة بالفتح : ما يحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة .

(٢) ينظر : تأويل مشكل القرآن ص ١٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٤.

كذلك يرى ابن قتيبة أن العربية خصت دون غيرها من اللغات بضبط الكلمة وإعرابها ، وما لهذا الضبط من أثر واضح في تحديد المراد ورفع اللبس في الكلام ، وإزالة الخفاء عنه .

كذلك ما يحدث في بنية الكلمة ، وأنهم يفرقون بحركة البناء في الحرف الواحد بين المعنيين ، كما أنهم يتصرفون في الكلمة بتغيير حرف من حروفها لتوافق بذلك المعنى المراد .

يقول ابن قتيبة في ذلك : " ولها الإعراب الذي جعله الله وَشْيًا لكلامها ، وحلية لنظامها ، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلاميين المتكافئين ، والمعنيين المختلفين ، كالفاعل والمفعول ، لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل بأن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب .

وقد يفرقون بحركة البناء في الحرف الواحد بين المعنيين ، فيقولون : "رجل لَعْنَةٌ " إذا كان يلعنه الناس ، فإن كان هو الذي يلعن الناس ، قالوا : " رجل لَعَنَةَ " فحركوا العين بالفتح ، و " رجل سُبَّةٌ " إذا كان يسبه الناس ، فإن كان هو يسب الناس قالوا : " رجل سُبَبَةُ " ... .

وقد يفرقون بين المعنيين المتقاربين بتغيير حرف في الكلمة حتى يكون تقارب ما بين اللفظين كتقارب ما بين المعنيين ... كقولهم : للقبض بأطراف الأصابع : " قَبْصٌ " و بالكف : " قَبْضٌ " وللأقل بأطراف الأسنان : " قَضْمٌ " وبالفم: " خَضْمٌ " . (١)

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن ص ١٤ : ١٦.

ومن خصائص العربية ما يحدث فيها من اشتقاق في حدود الكلمة الواحدة فيشتق من المعاني ما يوافقه من الألفاظ .

يقوب الإمام ابن قتيبة في ذلك " وقد يكتنف الشيء معان ، فيشتق لكل منها اسم من اسم ذلك الشيء ، كاشتقاقهم من البطن للخميص : " مُبَطَّن " وللعظيم البطن إذا كان خِلْقَةً " بَطِين " فإذا كان من كثرة الأكل قيل : " مِبْطان " وللمنهوم " بَطِنٌ " وللعليل البطن " مَبْطُون " . (١)

ومن خصائص العربية أيضا ما حباه الله أهلها من ملكة شعرية فائقة ، يضاف إلى ذلك ما لهذا الشعر من مكانة في نفوسهم ، فهو ديوان مفاخرهم ، وسجل أحسابهم ، وأنسابهم .

يقول ابن قتيبة : " وللعرب " الشعر " الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها ، وجعله لعلومها مستودعا ، ولآدابها حافظا ، ولأنسابها مقيدًا ، ولأخبارها ديوانا لا يرث على الدهر ، ولا يبيد على مر الزمان .

وحرسه بالوزن ، والقوافي ، وحسن النظم ، وجودة التحبير من التدليس والتغبير ، فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عَسُر ذلك عليه ، ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنثور " . (٢)

ويختم ابن قتيبة حديثه عن الخصائص التي اختصت بها العربية دون غيرها فيقول : " وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها طرف القول ومآخذه ففيها : الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ،

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن ص ١٧.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٧ ، ١٨.

والتكرار... .

وقد بين الإمام أن نظم القرآن قد بنى على هذه الخصائص ؛ لذا فإنه لا يمكن ترجمته مثل الكتب السماوية السابقة .

يقول : " وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ؛ ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلي الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب الله تعالى بالعربية ؛ لأن العجم لم تتسع في المجاز إتساع العرب " .

ثم يدلل ابن قتيبة على ما قاله ببعض الآيات القرآنية ، والتي منها قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١) فيقول : " إن أردت أن تنقله بلفظه ، لم يفهمه المنقول إليه ، فإن قلت : أنمناهم سنين عددا ، لكنت مترجما للمعنى دون اللفظ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًا وَعُمْيَانًا ﴾ (٢) إن ترجمته بمثل لفظه استغلق وإن قلت : لم يتغافلو أديت المعنى بلفظ آخر " . (٣)

(١) سورة الكهف آية ١١ .

(٢) سورة الفرقان آية ٧٣ .

(٣) ينظر : تأويل مشكل القرآن ص ٢١ ، ٢٢ .

ثالثا : الباعث على تأليف ابن قتيبة كتابه تأويل مشكل القرآن ومصادر مادته ومنهجه فيه :

بدأ ابن قتيبة كتابه بمقدمة وضح فيها مذهبه في الإعجاز القرآني ، ثم ذكر بعض الخصائص التي تفردت بها اللغة العربية دون غيرها .

فعل كل هذا قبل أن يذكر الهدف من وضع كتابه هذا .

وأرى أن الإمام يهدف من وراء صنيعه هذا إلي أمرين :

أما الأول : فهو أن هذه الخصائص كانت بمثابة القواعد ، والأسس التي اعتمد عليها في رده على الطاعنين المشككين آية ذلك أنه بعد أن ذكر هذه الخصائص قال : " وبكل هذه المذاهب نزل القرآن [1] ، وقال في موضع آخر : (إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومناهجها في الإيجاز والاختصار ، والإطالة والتوكيد ، والإشارة إلي الشيء وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللَّقِن ، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفى) . [2]

أما الثاني : فيتعلق بهؤلاء الطاعنين الملحدين ؛ إذ إنه يرى أنه لا يرقى إلي معرفة فضل البيان القرآني إلا من رسخ في معرفة لغة العرب وخصائصها التعبيرية ، وأنه ما أقدم هؤلاء الطاعنون الملحدون على الطعن في بلاغة القرآن ونظمه إلا لجهلهم باللغة التي نزل بها القرآن ، وأن سمومهم وأفكارهم لا تحقق الغاية منها إلا عند من كان على شاكلتهم من أصحاب القلوب المريضة ، والأفكار الخبيثة ، أو من كانت معرفته بلغة العرب ضعيفة ، ومن ثم فهي لا ترقى لأن تؤهله للنظر في بلاغة القرآن ونظمه .

---

(١) تأويل مشكل القرى، ص ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

بعد ذلك أعلن ابن قتيبة عن الهدف من تأليفه كتابه فقال : " وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلم عن موضعه ، وعدلوه عن سبله .

ثم قضوا عليه بالتناقض ، والاستحالة ، واللحن ، وفساد النظم ، والاختلاف .

وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمْر ، والحدث الغِرّ ، واعترضت بالشبه في القلوب ، وقدحت بالشكوك في الصدور ... فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمي من ورائه بالحجج النبرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون .

فالفت هذا الكتاب ، جامعا لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح ، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب ؛ لأُرِى المعاند به موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه براي ، أو أقض فيه بتأويل . [1]

من كلامه السابق يتضح لنا منهجه في كتابه بوجه عام ، وفي حكاية أقوال الطاعنين والرد عليها بوجه خاص ، وهو أنه كان يذكر الطعن ثم يرد عليه ويدلل بعد ذلك على صحة ما يرد به بما ورد عن العرب شعرا ونثرا .

وقد فرض عليه منهجه هذا أن يضع نفسه موضع المدافع عن القرآن في أسلوبه لا يتجاوز هذا الدفاع إلي أبعد منه كبيان تفوق أسلوب القرآن وإعجازه كما صنع الذين جاءوا بعده .

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢ ، ٢٣.

المبحث الثاني

حكاية ابن قتيبة لأقوال الطاعنين ورده عليهم

أولا : عرض ابن قتيبة لأقوال الطاعنين وحكايته لها :

أشرت منذ قليل إلى أن ابن قتيبة حدد الهدف من تأليف كتاب (تأويل مشكل القرآن) وهو الرد على هؤلاء الطاعنين الملحدين فيما يتعلق بالقرآن الكريم .

والجدير بالذكر أن هذه الطعون تنوعت فمنها ما مصدره ــ من وجهة نظرهم ــ اختلاف القراءات ، ومنها ما مصدره الاختلاف مع ما عرف من قواعد الإعراب وضبط الرواية ، ومنها ما وقع فيه بعض قصّار النظر فرمى القرآن الكريم بالتناقض والاختلاف فيما يعرض من أخبار ، ومنها ما مصدره لطف المعاني وعمقها ، وبعدها عن الإدراك المتسرع ، وعن غير الخبير بأساليب الكلام العربي ، ومنها ما يتعلق بالمجازات وغلط كثير منهم فى تأويلها ، ومنها ما يتعلق بالكناية ، وتكرار الكلام ، ومنها ما يتعلق بمخالفة ظاهر اللفظ معناه .

والجدير بالذكر أن ابن قتيبة بعد أن حكى أقوال الطاعنين ثم رد عليها مستندًا فى ذلك على ما ورد عن العرب شعرًا ونثرًا قال : " وقد ذكرت الحجة عليهم فى جميع ما ذكروا وغيره مما تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا ؛ ليكون الكتاب جامعًا للفن الذى قصدت " . (١)

وابن قتيبة يشير بقوله : " ليكون الكتاب جامعًا للفن الذى قصدت " إلى الهدف والمقصد من وضع هذا الكتاب ؛ وهو الرد على الطاعنين فى القرآن الكريم وبلاغته ونظمه ، وطرائق بيانه .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٣٢ .

كما أن قول ابن قتيبة " وقد ذكرت الحجة عليهم فى جميع ما ذكروا وغيره مما تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا " يشير إلى صنيع ابن قتيبة فى معالجة هذه الطعون ، وهو أن يذكر هذه الطعون ، ثم يرد عليها ، ثم يذكر ما يشبهها مما قد يظن أن يقال فيه مثلما قيل .

وسوف أذكر هذه الطعون ورد ابن قتيبة عليها ، ثم أذكر ما يشبهها معتمدًا فى ذلك على إحالات ابن قتيبة ، وذلك حتى لا يخرج البحث عن موضوعه وعن الهدف الذى كان من أجله وهو " ابن قتيبة ودفع مطاعن بلاغية حول نظم القرآن من خلال كتابه " تأويل مشكل القرآن ") .

ثانيا : حكاية ابن قتيبة لأقوال الطاعنين في القرآن الكريم بالمجاز :

قبل عرض ما طعن به الطاعنون على القرآن من أنه اشتمل على كثير من المجازات ؛ والمجاز ــ عندهم ــ أخو الكذب ، والقرآن الكريم منزه عن ذلك وأن المتكلم لا يلجأ إلى المجاز إلاّ إذا عجز عن التعبير عن المعنى بطريق الحقيقة والله منزه عن ذلك .

أود أن أقف عند عدّة أمور منها :

ــ مفهوم المجاز عند ابن قتيبة .

ــ موقف ابن قتيبة من الخطأ الذى وقع فيه بعض أهل الكتاب في حمل بعض الألفاظ على حقيقتها .

ــ موقفه من خطاب الله تعالى ــ للملائكة ، وللنحل ، والسماء ، والأرض وللجنة والنار ، وهل يمكن حمل مثل هذا على الحقيقة ؟

١ـ مفهوم المجاز عند ابن قتيبة :

لم يكن ابن قتيبة واضحًا كل الوضوح فى تحديد معنى المجاز ، وهل هو المقابل للحقيقة ــ كما عرف عند البلاغيين بعده ــ أم أنه أعم وأشمل من ذلك فيعد كل ألوان البلاغة قاطبة من المجاز ، وإن اعتبرت بعد ذلك من صلب علمي المعاني والبيان كما هو عند أبي عبيدة ، وللإجابة على هذا التساؤل أقول :

لابن قتيبة فى كتابه " تأويل مشكل القرآن" عبارات ظاهرها يفيد أن المجاز عنده ليس هو المقابل للحقيقة ، ولكنه التنويع فى الصورة التعبيرية .

يقول : " وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها : طرق القول ومآخذه ففيها : الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة سنراها (فى أبواب المجاز) إن شاء الله تعالى " . (١)

بالنظر فى كلام ابن قتيبة يتضح لنا مفهوم المجاز عنده ، وأنه يتسع فيشمل الكثير من الألوان البلاغية " فكل ما فيه اتساع بوجه من الوجود أو رخص فى التعبير عنه فهو من باب المجاز " . (٢)

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٢٠ ، ٢١ .

(٢) ينظر : أثر النحاة فى البحث البلاغي ص١٨١ للدكتور / عبد القادر حسين ، طبع دار نهضة مصر .

ولابن قتيبة عبارات أخرى ــ هي من الوضوح بمكان ــ تدل دلالة واضحة على أن المجاز عنده هو المقابل للحقيقة .

يقول : " وذهب قوم فى قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولا على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني ، وصرفوه فى كثير من القرآن إلى المجاز ... قالوا : فى قوله للسماء والأرض : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [1] لم يقل الله ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدوما ؟ وإنما هذه عبارة : لكوناهما فكانتا ، قال الشاعر حكاية عن ناقته :

تقولُ إذا درأتُ لها وضِيني ... أهذاَ دينهُ أبدًا وَدِيني

أكُلَّ الَّدهْرِ حَلٌّ وارْتِحَالٌ ؟ ... أمَا يُبْقِى علىَّ ولا يَقِيني

وهي لم تقل شيئًا من هذا ، ولكنه رآها فى حال من الجهد والكلال فقضى عليها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذى ذكر .

وكقول الآخر :

شكا إلىَّ جَمَلِي طُولَ السُّرى

والجمل لم يشك ، ولكنه خبَّر عن كثرة أسفاره ، وإتعابه جمله ، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلما لاشتكى ما به .

وكقول عنترة فى فرسه :

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القنا بِلَبانِهِ ... وشكا إلىَّ بِعَبْرةٍ وتَحمْحُم

(١) سورة فصلت من الآية ١١ .

لما كان الذى أصابه يُشْتكى منه ويُسْتَعْبر منه ، جعله مشتكيًا مستعبرًا وليس هناك شكوى ولا عبرة " . (١)

فابن قتيبة يرى أن السماء والأرض لو كانتا ممن يتكلم لقالتا بالطاعة والانقياد ، والشاعر يرى أن ناقته لو كانت ممن يتكلم لشكت حالها ، وكذلك عنترة يرى أن شكوى فرسه فى دموعه وصهيله " فهذا كله نوع من التشخيص وإضفاء صفات الإنسان العاقل على الجماد أو الحيوان غير العاقل ، مما يصح أن تدخله فى أبواب الاستعارة المكنية القائمة على التشبيه " . (٢)

٢ـ موقف ابن قتيبة من الخطأ الذى وقع فيه بعض أهل الكتاب فى حمل بعض الألفاظ على حقيقتها :

صدَّر ابن قتيبة حديثه عن المجاز بما وقع فيه بعض أهل الكتاب من النصارى واليهود من خطأ فى حمل بعض الألفاظ على الحقيقة وأن الأولى حملها على المجاز .

فهو يرى أن النصارى لم يفهموا ما فى بعض أقوال سيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ من المجاز ، وحملوا اللفظ على الحقيقة .

من ذلك مثلا : كلمة (أب) موصوفًا بها (الرب) جلَّ وعلا .

يقول ابن قتيبة : " وأما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس فى التأويل ، وتشعبت بهم الطرق ، واختلفت النحل : فالنصارى تذهب فى قول المسيح ــ عليه السلام ــ فى الإنجيل : أدعو أبي ، وأذهب إلى أبي " ، وأشباه

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) أثر النحاة فى البحث البلاغي ص١٨٠ .

هذا إلى أبوة الولادة " . [١]

ثم يرد عليهم بأن المسيح ــ عليه السلام ــ لم يقتصر على جعل (الرب) مضافًا إلى ضميره وحده ، بل أضافه إلى غيره ممن خاطبهم " فلو كانت أبوة (الرب) لسيدنا عيسى أبوه ولادة حقيقية للزم أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لمن خاطبهم وهذا مالم يقل به النصارى أصحاب هذا الاعتقاد ، ومدعو نسبة الأقوال إلى عيسى ــ عليه السلام ــ " . [٢]

يقول ابن قتيبة : " ولو كان المسيح قال هذا فى نفسه خاصة دون غيره ما جاز لهم أن يتأولوه هذا التأويل فى الله ــ تبارك وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا ــ مع سعة المجاز ، فكيف وهو يقوله فى كثير من المواضع لغيره ؟ كقوله حين فتح فاه بالوحي : (إذا تصدقت فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك ، فإن أباك الذى يرى الخفيات يجزيك به علانية ، وإذا صليتم فقولوا : يا أبانا الذى فى السماء ليتقدس اسمك ، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير أبيك " . [٣]

وفى نهاية الأمر يرى ابن قتيبة أن الأولى حمل مثل هذا على المجاز فيقول : " وتأويل هذا أنه فى رحمته وبره وعطفه على عباده الصالحين كالأب الرحيم لولده " . [٤]

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٠٣ .

(٢) المجاز فى اللغة والقرآن بين الأجازة والمنع ١ / ٦٤ ، للدكتور / عبد العظيم المطعني الطبعة الأولى ــ نشر : مكتبة وهبة .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص١٠٣ .

(٤) المصدر السابق ص١٠٣ .

وابن قتيبة يستند فيما ذهب إليه على ما ورد فى كلام العرب قديمًا وبما جاء فى كتاب الله تعالى حيث يقول : " وكانت العرب تسمى الأرض أما ؛ لأنها مبتدأ الخلق ، وإليها مرجعهم ومنها أقواتهم ، وفيها كفايتهم " .

وقال أمية بن أبي الصلت :

والأرضُ مَعْقِلُنا وكانت أُمَّنا فيها مقابرُنا وفيها نُولَدُ

وقال آخر يذكرها :

منها خُلِقْنا وكانت أُمَّنا خُلِقَتْ ونحن أُبناؤها لو أننا شُكُرُ

هي القرار فلا نَبْغِي بها بدلًا ما أرْحَمَ الأرضَ إلا أننا كُفُرُ

وقال الله تعالى فى الكافر : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ (١) ، لما كانت الأم كافلة الولد وغاديته ، ومأواه ، ومربيته ، وكانت النار للكافر كذلك جعلها أمه .

وقال فى أزواج النبي ــ ﷺ ــ : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٢) ، أي كأمهاتهم فى الحرمات " . (٣)

هذا وتعليق ابن قتيبة على قوله تعالى : (فأمه هاوية) ــ وهو يريد النار ــ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (٤) ــ يفيد بأن إطلاق الأم على النار من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية بجامع الإحاطة والشمول ، حيث شبهت النار بالأم فى أنها تحيط بها إحاطة رحم الأم بالولد ، أو

(١) سورة النازعة آية رقم ٩ .
(٢) سورة الأحزاب من الآية ٦ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص١٠٤ .
(٤) سورة النازعة الآيتان : ١٠ ، ١١ .

لأنه يأوى إليها كما يأوى الطفل إلى أمه . [١]

وهكذا الحال فى استعارة الأم للأرض فى كلام الشعراء ، أما قوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) فواضح من كلام ابن قتيبة أنه لا يحمل الآية على الحقيقة وإن كان يشير إلى التشبيه المحذوف الوجه والأداة للمبالغة فى شبههن بالأمهات فى تحريم النكاح واستحقاق التعظيم .

كذلك وقف ابن قتيبة عند الخطأ الذى وقع فيه اليهود من حمل لفظ (استراح) على حقيقته ، وأنها تكون بعد المعاناة من شئ ينصبك ويتعبك فتستريح وبذلك حرَّموا العمل يوم السبت ؛ لأنه اليوم السابع عندهم اقتداء بفعل (الرب) فى زعمهم . [٢]

فرأى أن الفعل (استراح) هنا بمعنى (فرغ) والاستراحة بمعنى الفراغ تقول : " استرحنا من حاجتك وأمرنا بها ، تريد فرغنا ، والفراغ أيضًا يكون من الناس بعد شغل ، ثم قد ينتقل ذلك فيصير فى معنى القصد للشئ ، تقول : لئن فرغت لك ، أي : قصدت قصدك .

وقال الله تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [٣] ، والله تبارك وتعالى لا يشغله شأن عن شأن ، ومجازه سنقصد لكم بعد طول الترك والإمهال " . [٤]

---

(١) ينظر : روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٢٢٢/٣٠ طبع: دار إحياء التراث العربي ، بيروت ــ الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

(٢) ينظر : المجاز فى اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع ١ / ٦٧ .

(٣) سورة الرحمن الآية ٣١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص١٠٥ .

فابن قتيبة يرى أنه كما يكون الفراغ بمعنى القصد بطريق الاستعارة التصريحية التبعية فى الفعل ، كذلك تكون (الاستراحة) بمعنى (الفراغ) بطريق الاستعارة التصريحية التبعية فى الفعل أيضًا .

من كل ما سبق سواء فى تصحيح ما وقع فيه النصارى من حمل كلمة (أب) على حقيقتها بمعنى أبًا والدًا ، أو ما وقع فيه اليهود من حمل الفعل (استراح) على معناه الحقيقي وبهذا يتضح لنا أنه اتخذ من المجاز سلاحًا ماضيًا فى تحرير مسائل الاعتقاد ، ويبين بما لا يدع مجالًا للشك أن الناس قد يخطئون خطأ جسيمًا فى أصول العقيدة إذا لم يفطنوا لدلالة المجاز فى النصوص الشرعية أو التى تنتمي إلى أصل شرعي وإن لم يكن مقطوعًا بصحة سندها أو متنها ".[1]

٣ـ موقف ابن قتيبة من قول الله وكلامه للملائكة ، وللنحل ، وللسماء والأرض ، والجنة والنار ، وهل يمكن حمل مثل هذا على الحقيقة ؟

فيما يتعلق بقول الله وكلامه ، وخطابه للملائكة وللنحل ، والسماء والأرض ، والجنة والنار ، يذكر ابن قتيبة أقوال بعض المعتزلة والمتكلمين الذين يرون أن الآيات التى تسند الكلام إلى الخالق ، وتصف حوارًا بينه وبين الأشياء لا تؤدي معنى القول الحقيقي ، وإنما هي مجازات لها حقائقها المجردة ، ولها نظائرها فى الشعر العربي القديم ، ولغة العرب .

يقول : " وذهب قوم فى قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولا ولا كلامًا على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني ، وصرفوه فى كثير من القرآن إلى (المجاز) كقول القائل : قال الحائط فمال ... وقال بعضهم فى قوله للملائكة : ﴿ اسْجُدُوا

(١) المجاز فى اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع ١ / ٦٧ ، ٦٨ .

لِآدَمَ ﴾ [١] هو إلهام منه للملائكة ، كقولـــه تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ [٢] أي ألهمها ... وقالوا فى قوله للسماء والأرض : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [٣] : لم يقل الله ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدومًا ؟ وإنما هذه عبارة : لكوَّناهما فكانتا ، قال الشاعر حكاية عن ناقتـــه :

تقـــولُ إذا درأتُ لهـــا وَضِـــينِي أَهـــذا دينُـــهُ أبـــدًا ودينـــي

أكُـــلَّ الـــدَّهر حَـــلٌّ وارتحـــالٌ أمـــا يُبْقِـــى علـــىَّ ولا يَقِينـــي

وهي لم تقل شيئًا من هذا ، ولكنه رآها فى حال من الجهد والكلال فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذى ذكر ... قالوا : ونحو هذا قولـــه تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ وليس يومئذ قـــول منه لجهنم ، ولا قول من جهنم ، وإنما هي عبارة عن سعتها " . [٤]

وبعد أن عرض ابن قتيبة ما قاله هؤلاء بالنسبة لقول الله وكلامه أفصـــح عن رأيه فى ذلك فهو يرى أن الآيات التى تميل إلى التشبيه والتجسيم ، أو التـــى تخلع على الحيوانات والجمادات صفات البشر كعطف الســـماء والأرض ، وكـــلام جهنم ، وحديث الحيوان ، وتسبيح الطير والجبال إذا جاز حملها على المجـــاز ، فليس هناك ما يمنع من حملها على الحقيقة .

يقول : " وما فى نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجـــب ؟ والله تبارك وتعالى ينطق الجلود ، والأيدي ، والأرجـــل ، ويســـخر الجبـــال والطيـــر

(١) سورة البقرة من الآية ٣٤ .
(٢) سورة النحل من الآية ٦٨ .
(٣) سورة فصلت من الآية ١١ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

بالتسبيح ، فقال : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ ... يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ... ﴾ (٢) ، أي : يسبحن معه ، وقال : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٣) .

وقال فى جهنم : ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾ (٤) ، أي تتقطع غيظًا عليهم ، كما تقول : فلان يكاد يتقد غيظا عليك ، أي : ينشق .

وهذا سليمان ــ عليه السلام ــ يفهم منطق الطير وقول النمل ... وهذا رسول الله ــ ﷺ ــ تخبره الذراع المسمومة ، ويخبره البعير أن أهلها يجيعونه ويدئبونة " . (٥)

كما أنه يفرق بين القول والكلام ؛ إذ يرى أن القول يقع فيه المجاز بخلاف الكلام فإنه لا يكون مجازًا إلا فى حالة واحدة فقط وهي استنطاق الموتى للعظة والعبرة .

قال ابن قتيبة فى هذا السياق : " قال أبو محمد : وقد تبين لمن عرف اللغة أن القول يقع فيه المجاز ، فيقال : قال الحائط فمال ، وقلّ برأسك إلىّ أي أمله ، وقالت الناقة ، وقال البعير .

---

(١) سورة ص الآيتان : ١٨ ، ١٩ .
(٢) سورة سبأ من الآية ١٠ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .
(٤) سورة الملك من الآية ٨ .
(٥) تأويل مشكل القرآن ص١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ .

ولا يقال فى مثل هذا المعنى : تكلم ، ولا يُعْقَلُ الكلام إلا بالنطق بعينه ، خلا موضع واحد وهو أن تتبين فى شئ من الموات عبرة وموعظة فتقول : خيّر وتكلم وذكرَّ ؛ لأنه دّلك معنى فيه ، فكأنه كلمك .

قال الشاعر :

وعَظتْكَ أحداثٌ صُمتْ ... ونَعَتْكَ ألسنةٌ خُفُتْ

وتكلمتْ عنْ أوْجُهٍ ... تُبْلي وعنْ صُور سُبُتْ

وأرتكَ قبرَكَ فى القُبو ... رِ وأنتَ حيٌّ لمْ تَمُتْ [1]

ويذكر ابن قتيبة ضابطًا يفرق به بين ما يحمل على الحقيقة ، وما يحمل على المجاز ؛ إذ يرى أن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر ولا بتكرار الكلام ، وما ورد مؤكدًا بالمصدر أو بالتكرار نراه يحمله على الحقيقة قولًا واحدًا .

يقول ابن قتيبة فى هذا الصدد : " تقول : أراد الحائط أن يسقط ، ولا تقول: أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة ، وقالت الشجرة فمالت ، ولا تقول : قالت الشجرة فمالت قولا شديدًا ، والله تعالى يقول : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [2] فؤكد بالمصدر معنى الكلام ونفى عنه المجاز .

وقال : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [3] فؤكد القول بالتكرار ، ووكد المعنى بإنما . [4]

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) سورة النساء من الآية ١٦٤ .

(٣) سورة النحل آية ٤٠ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص١١١ .

والواضح من كلام ابن قتيبة السابق أن تأكيد الآية الأولى بالمصدر (تكليما) جعل الكلام فيها محمولاً على الحقيقة دون سواها ، وكذلك التكرار فى الآية الثانية ، وهكذا كل ما جاء من هذا القبيل .

والواقع أن ما ذهب إليه ابن قتيبة أمر قابل للاعتراض والرد ، وقد وُجِدَ هذا عند ابن جني المعتزلي فى القرن الرابع الهجري الذى يرى أن المجاز يعدل إليه لمعان ثلاثة وهي : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه ، وساق على ذلك أمثلة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَتِي كُنَّا فِيهَا ... ﴾ (١) .

يقول ابن جني : " أما الاتساع فلأنه استعمل لفظ السؤال مع مالا يصح فى الحقيقة سؤاله ... وأما التشبيه فلأنها شبهت بمن يصح سؤاله لما كان بها ومؤلفا لها ، وأما التوكيد فلأنه فى ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الإجابة ، فكأنهم تضمنوا لأبيهم ــ عليه السلام ــ أنه إن سال الجمادات والجبال أنبأته بصحة قولهم .

وهذا تناه فى تصحيح الخبر ، أي : لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا ، فكيف لو سألت من عادته الجواب " . (٢)

كما أن ابن جني يرى أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة " وأن مثل : جاء زيد ، وقعد عمرو ، وانطلق بشر ، وجاء الصيف ، وانهزم الشتاء من قبيل المجاز ". (٣)

---

(١) سورة يوسف من الآية ٨٢ .

(٢) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ٢ / ٤٤٧ ، طبع : دار الهدى للطباعة والنشر ــ بيروت .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٤٤٧ .

ويختم ابن جني كلامه فيذهب إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ مع توكيده بالمصدر إلاَّ أنه ليس هناك ما يمنع من حمله على المجاز .

يقول : " ومثل توكيد المجاز فيما مضى قولنا : قام زيد قياما ، وجلس عمرو جلوسا ، وذهب سعيد ذهابا ، ونحو ذلك ، لأن قولنا : قام زيد ونحو ذلك قد قدمنا الدليل على أنه مجاز ، وهو مع ذلك مؤكد بالمصدر ، فهذا توكيد المجاز كما ترى ، وكذلك أيضًا يكون قوله سبحانه : (وكلم الله موسى تكليما) من هذا الوجه مجازًا على ما مضى " . (١)

٤- رد ابن قتيبة على الطاعنين فى القرآن الكريم بالمجاز

وفى ختام حديث ابن قتيبة عن المجاز ذكر ما طعن به الطاعنون على القرآن الكريم بوجود المجاز فيه ، وأن المجاز ــ من وجهة نظرهم ــ والكذب صنوان ، وأن القرآن الكريم لا يخلو من المجاز ، وبالتالي فهو لا يخلو من الكذب.

قال : " وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب ، لأن الجدار لا يريد ، والقرية لا تسأل .

وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها على سوء نظرهم ، وقلة أفهامهم " .

ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلًا كان أكثر كلامنا فاسدًا ؛ لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، وَرَخُصَ السِّعْرُ ... ولو قلنا للمنكر لقوله (جدارًا يريد أن ينقض) كيف أنت قائل فى جدار رأيته على شفا انهيار ؟ رأيت جدارًا ماذا ؟ لم يجد بدًا من أن

(١) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ٢ / ٤٥٦ .

يقول : جدارًا يهم أن ينقض أو يقارب أن ينقض ، وأيًا ما قال فقد جعله فاعلا ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى فى شئ من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ .

وأنشدني (السجستاني) عن (أبي عبيدة) فى مثل قول الله : (يريد أن ينقض) :

يريدُ الرُّمحُ صَدْرَ أبِي بَرَاءٍ ويرغبُ عن دماءِ بَنِي عَقِيلٍ

وأنشد الفراء :

إنَّ دهرًا يلُفُّ شملي بِجُمْلٍ لزمانٍ يَهُمُّ بالإحسانِ

والعرب تقول : بأرض فلان شجر قد صاح ، أي : طال ، لما تبين الشجر للناظر بطوله ودل على نفسه ، جعله كأنه صائح ؛ لأن الصائح يدل على نفسه بصوته " . (١)

ولعله من الوضوح بمكان أن رد ابن قتيبة على الطاعنين يتمثل فى أمرين :

أولهما : استند فيه على ما ورد عن العرب ــ وتلك هي طريقته فى ردّه لكثير من الطعون ــ فهم يقولون : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، ورخص السعر فينسبون الأفعال إلى غير ما حقه أن تنسب إليه مجازًا ولو عدّ مثل هذا كذبا لكان أكثر كلام العرب فاسدًا .

وأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، وكلام العرب اشتمل على المجاز لذا ففي القرآن مثل ما فى كلام العرب من المجازات غير أنه على أفضل

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٣٢ ــ ١٣٤ .

وجه منها وأجمل نظم وأعجز بيـــان .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أن ما ذكره ابن قتيبة ورد به على الطاعنين ذكره غيره من الذين جاءوا بعده.

منهم على سبيل المثال العلامة ابن رشيق الذى ينقل عــن ابــن قتيبــة تعريف المجاز ، ورده على من ينكرون المجاز ، وكذلك تعليقه على قولــه تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [1] ، يقول : " ومعنى المجاز طــرق القــول ومأخذه ... ومن كلام عبدالله بن مسلم بن قتيبة فى المجاز ، قال : لو كان المجاز كذبا لكان أكثر كلامنا باطلا لأنا نقول نبت البقل وطالت الشجرة ... وقال فى قول الله عز وجل : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ لو قلنا للمنكر هــذا كيف تقول فى جدار رأيته على شفا انهيار ؟ لم يجد بدأ من أن يقــول : يهــم أن ينقض أو يقارب .. ".[2]

كذلك دافع الإمام عبد القاهر عن المجاز ورد على من يصفونه بالكــذب ، فقال : " ومن قدح فى المجاز ، وهمَّ أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطا عظيمًا ويهدف لما لا يخفى ، ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية بــه حتــى تحصل ضروبه ، وتضبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص مما نحا نحو هذه الشبهة ؛ لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه ، ويصــرف العنايــة إليــه ، فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة إليه من جهات يطول عدُّها .. " . [3]

---

(١) سورة الكهف من الآية ٧٧ .

(٢) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ١ / ٢٦٦ ، تحقيق وتعليق الشيخ / محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبع : دار الرشاد الحديثة من دون تاريخ .

(٣) أسرار البلاغة للشيخ عبدالقاهر ص٣٦١ ، تحقيق / هــ ريتر ، طبع مكتبة المثنى بغــداد الطبعــة الثانية ١٣٩٩هــ / ١٩٧٩م .

وفى نهاية الأمر نقول : إن المجاز ليس كذبًا ، بل إنه يقوم على حقيقة ، غاية ما فى الأمر أننا تحوزنا فى دلالات الكلمات كي نعبر عن هذه الحقيقة تعبيرًا خاصا يحدث تأثرًا أقوى وأشد مما لو استخدمنا الكلمات استخدامًا حرفيًا تبعًا لأصلها الذى وصفت له " . (١)

أما الأمر الثاني : فهو تعليقه على آية سورة الكهف ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ ، والتى من خلالها رمى هؤلاء الطاعنون القرآن الكريم بالمجاز ، ومن ثم بالكذب ، فهو يرى أنها جاءت على وفق ما جاء عن العرب فى مجازاتهم ، وأن هذا المعنى الذى أدته الآية لا يؤدي إلا بمجاز مثلها ، أو بالمجاز الذى أدته الآية به ، سواء فى ذلك الأسلوب العربي أو أسلوب غير العرب .

وقد أخذ بعض أهل العلم على ابن قتيبة إسرافه فى تحديه هذا فقال معلقا على كلامه : " وإن كان يسرف ابن قتيبة فى تحديه الذى أراد به إفحام الطاعن على القرآن إذ كان فى الإمكان أن يعبر تعبيرًا آخر لا يجعل الجدار فيه فاعلا كأن يقول : جدار على وشك الانقضاض أو فى سبيله إليه أو ما أشبه ذلك من أساليب لا يكون الجدار فيها فاعلًا إلا فى تأويل النحاة .

كذلك لم نكن لنستحب من ابن قتيبة أن يجعل المجاز القرآن فى الآية المذكورة هو السبيل الوحيد لتأدية المعنى به : سواء ما ورد منه فى القرآن وما ورد منه على لسان البشر ؛ إذ إن هذا يؤدي إلى حتمية الشكل الواحد للمعنى لا يستطيع القرآن ولا الإنسان أن يخرج عليه ، وإذا فلا تقارب فى مثل هذا بين الأداء القرآني والأسلوب الإنساني " . (٢)

---

(١) الصورة فى التراث النقدي والبلاغي . د/ جابر عصفور ، ص٥٢٤ ، طبع : دار المعارف ١٩٨٠م

(٢) ينظر : مناهج البحث البلاغي فى الدراسات العربية ، للدكتور / عبد السلام عبدالحفيظ ص١٤٣ ، طبع : دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٧٨م .

ويمكن أن يرد عليه بأنه على أي أسلوب فإن الانقضاض سوف يسند إلى الجدار أو يضاف إليه أو يتعلق به تعلق الأحداث ، وعلى كلٍّ فهو مجاز ، وهذا هو أصل المطعن .

ثالثا :دفع مطاعن بلاغية حول بعض الاستعارات القرآنية

حكى ابن قتيبة عن هؤلاء الطاعنين فى بلاغة القرآن الكريم ونظمه أنهم طعنوا فيما جاء عليه نظم قول الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

وموطن طعنهم فى قوله : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) حيث قالوا : " كيف يذاق اللباس ؟ وإنما كان وجه الكلام : فألبسها الله لباس الجوع والخوف ، أو غشاها الله لباس الجوع والخوف ، أو فأذاقها الله الجوع والخوف) . (٢)

فهم يرون أن الذوق لا يناسب كلمة (لباس) التى جاءت فى الآية ؛ وإنما يناسبها " ألبسها أو غشاها " أو تحذف كلمة (لباس) ، ويقال : فأذاقها الله الخوف والجوع .

وقد نظر هؤلاء إلى بعض استعمالات الكلمة ، وغضوا الطرف عن البعض الآخر ؛ وذلك لتحقيق مطلبهم وهو الطعن فى بلاغة القرآن ، فمن معاني الكلمة أنها وضعت لتدل على إحساس اللسان بأحوال الطعوم ، ففي لسان العرب :

(١) سورة النحل آية رقم ١١٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٣١ .

(المذاق : طعم الشئ ، والذّواق : هو المأكول والمشروب " . [١]

وقد غاب عنهم أن " ذَوَقَ " كما تستعمل حقيقة ويراد بها ما ذكرنا بها كذلك تستعمل مجازًا وتكون بمعنى الاختبار والابتلاء وكلام العرب يؤيد هذا ، يقول ابن منظور فى لسان العرب : (ذقت فلانا وذقت ما عنده) أي : خبرته كذلك ما نزل بالإنسان من مكروه فقد ذاقه ، ويقال : ذقت فلانا أي خبرته ... والذّواق يكون فيما يكره ويحمد ... وهذا من المجاز أن يستعمل وهو ما يتعلق بالأجسام فى المعاني [٢] ، كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾ [٣] .

ذكر ابن قتيبة طعنهم هذا فيما حكاه عنهم من طعون فى بلاغة القرآن ونظمه ، ثم تولى الرد عليهم فى باب الاستعارة ؛ لأنه يرى أن كلمتي : (ذاق) ، (لباس) استعملتا استعمالا مجازيًا ، وأن الكلام ليس من قبيل الحقيقة ، مسلما لهم أولًا بأن أصل الذوق يكون بالفم ، ولكنه قد يراد به مجازًا الاختبار والابتلاء معتمدًا فى ذلك على ما نطق به العرب ، كما أن كلمة (لباس) استعيرت لما ظهر عليهم من آثار الجوع والخوف .

يقول ابن قتيبة : " وأصل الذّواق : بالفم ، ثم قد يستعار فيوضح موضع الابتلاء والاختبار ، تقول فى الكلام : ناظر فلانا وذق ما عنده ، أي تعرف واختبر واركب الفرس وذقه .

قال الشماخ فى وصف قوس :

فَذَاقَ فأعطتهُ مِنَ اللِّينِ جانبًا كَفَى ولهَا أن تُغْرِقَ السهمَ حاجزُ

(١) لسان العرب مادة : (ذوق) ٣ / ١٥٢٦ طبع : دار المعارف .
(٢) لسان العرب : مادة (ذوق) ٣ / ١٥٢٦ ، ١٥٢٧ .
(٣) سورة الدخان آية ٤٩ .

يريد : أنه ذاق القوس بالنزع فيها ليعلم ألينة هي أم صلبة ... (ولبـــاس الجوع والخوف) : ما ظهر عليهم من سواء آثارهما بالضمر والشحوب ونهكـــة البدن ، وتغير الحال وكسوف البال ...

وكما تقول : " تعرفت سوء أثر الخوف والجوع على فلان ، وذقت بمعنى تعرفت ، واللباس : بمعنى سوء الأثر كذلك تقول : ذقت لباس الجوع والخـــوف ، وأذاقني الله ذلك " . (١)

ويكفي ابن قتيبة فى ردّه على هؤلاء الطاعنين أن ينبههم إلـــى أن "ذاق" هنا ليست على حقيقتها ، وأنها استعملت استعمالًا مجازيًا ، وقد صرَّح بذلك لأنها موطن الطعن لدى هؤلاء ، كما يفهم من كلامه : (ولباس الجوع والخوف) : ما ظهر عليهم ... وأن كلمة (لباس) فى الآية استعملت استعمالًا مجازيًا أيضًا .

وهذا ما ذهب إليه البلاغيون يعد ذلك ولكن بقدر كبيـــر مـــن التوضـــيح والتفصيل ، فالزمخشري فى الكشاف يقول : " فـــإن قلـــت : الإذاقـــة واللبـــاس استعارتان فما وجه صحتهما ، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المســـتعار فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟ قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من آثر الضرر والألم بما يدرك مـــن طعـــم المر والبشع ، وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الإنســـان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخـــوف ؛ فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل : فأذاقهم ما غشيهم من

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٦٤ ، ١٦٥ .

الجوع والخوف " . [1]

والذى يفهم من كلام الزمخشري السابق أن فى الآية استعارتين ، وقد صرّح بهذا العلامة سعد الدين فى المطول فقال : " والذى يلوح من كلام القوم فى هذه الآية أن فى (لباس الجوع) استعارتين إحداهما تصريحية ، وهو أنه شبه ما غشى الإنسان عند الجوع والخوف من بعض الحوادث باللباس ؛ لاشتماله على اللابس ثم استعير له اللباس .

والأخرى مكنية وهو أنه شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر البشع حتى أوقع عليه الإذاقة " . [2]

بقى بعد ذلك أمر مهم وددت أن أشير إليه ، وهو أن ابن قتيبة ذكر هذه الآية ضمن ما حكاه عن هؤلاء الطاعنين فى بلاغة القرآن الكريم ونظمه ، ثم تولى الرد عليهم فيما قالوه فى باب الاستعارة ، وقد ذكر الاستعارة عقب ذكره للمجاز وذلك لمدى الصلة التى بينهما فهي نوع من نوعية بل إنها أكثرهما شيوعًا وانتشارًا .

كما يلاحظ على ابن قتيبة أنه وسع دائرة الاستعارة فأدخل تحتها ما عدّه البلاغيون بعد ذلك ليس منها فأدخل المجاز المرسل ، والكناية ، والتشبيه ، والمشاكلة ، يقول : (فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاورًا لها ، أو مشاكلًا ...

كما أنه ذكر بعض الآيات التى عدَّها المتأخرون من قبيل الاستعارة .

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشري ٤٣١/٢ طبع ونشر : مصطفى البابي الحلبي ــ الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

(٢) المطول ص٣٧٨ ، طبع : مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ .

ولكنه لم يذكرها ضمن ما حكاه عن الطاعنين كقولـــه تعالى : ﴿ وَقَـــدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ (١) ، وقولـــه تعالى : ﴿ أَوَ مَـــن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (٢) ، وقولـــه تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَـــا كُـــلَّ ذِي ظُفُرٍ ... ﴾ (٣).

وغير ذلك كثير مما يدخل تحت دائرة الاستعارة من القرآن الكريم ، ومن كلام العرب شعرًا ونثـــرًا . (٤)

رابعا : المبالغة ورد ابن قتيبة على الطاعنين في القرآن بها .

حكى ابن قتيبة عن الطاعنين فى نظم القرآن الكريم وبلاغته أنه قالوا فى قولـــه تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (٥) .

" كيف تبلغ القلوب الحلوق ، والقلب إن زال عن موضعه شـــيئا ، مـــات صاحبـــه " . (٦)

ثم تولى الرد عليهم فيما ذهبوا إليـــه .

وقبل عرض كلامه وبيان مدى تأثيره فيمن أتى بعده ، وما الأشياء التـــى استند عليها فى الرد عليهم أوّد أن أشير إلى عدّة أمور تتعلق بابن قتيبة أهمها:

---

(١) سورة الفرقان آية ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام من الآية ١٢٢ .
(٣) سورة الأنعام من الآية ١٤٦ .
(٤) ينظر : تأويل مشكل القرآن من ص١٣٥ ــ ١٦٦ .
(٥) سورة الأحزاب آية ١٠ .
(٦) تأويل مشكل القرآن ص٣١ .

أولًا : أنه يستحسن هذا اللون من الكلام ، والذى يقوم على المبالغة فى إثبات الصفة أو نفيها بغض النظر عما يراه الآخرون .

يقول فى هذا الموطن : " وكان " بعض أهل اللغة " يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ، وينسبها إلى الإفراط وتجاوز المقدار وما أرى ذلك إلاَّ جائزًا حسنا على ما بيناه من مذاهبهم ". (١)

وابن قتيبة يقصد بقولهم على ما بيناه من مذاهبهم أن من مذاهب العرب المبالغة فى الوصف ، وسيأتي نص حديثه فى ذلك . (٢)

ثم يذكر ابن قتيبة أشعارًا بنيت على المبالغة فى أعلى درجاتها لتصل إلى درجة الغلو ، منها كما قال :

كقول النابغة فى وصف سيوف :

تَقُدَّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نسْجهُ وتُوقِدُ بالصَّفَّاحِ نَار الحُباحِبِ

ذكر أنها تقطع الدروع التى هذه حالها ، والفارس حتى تبلغ الأرض فتورى النار إذا أصابت الحجارة .

وقول النَّمِر بن تَوْلب فى صفة سيف :

تظَلَّ تحفرُ عنه إن ضربتَ بهِ بعدَ الذِّراعينِ والسَّاقينِ والهادِي

يقول : رسب فى الأرض بعد أن قطع ما ذكر ، واحتاج أن يحفر عنه يستخرجه من الأرض .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) ينظر البحث ص : .

وقول عنتـــرة :

وأنا المنيِّـــةُ فـــى المـــواطِنِ كلهـــا والطعـــنُ منـــى ســـابقُ الآجـــالِ

وقال بشار :

إذا مـــا غَضِـــبْنا غضـــبةً مُضَـــرِيَّةً هَتَكْنا حجابَ الشَّمسِ أو قطـــرتْ دمًـــا

وقال ابن ميادة :

ولو أن قيسًا قيسَ عيلانَ أقســـمتْ على الشمسْ لم تطلُع عليـــكَ حجابُهـــا

ويختم ابن قتيبة كلامه فى هذا فيقول : " وهذا كله علـــى المبالغـــة فـــى الوصف ، وينوون فى جميعه بـــ " كاد " يفعل وكلهم يعلم المراد) . (١)

ثانيًا : يرى ابن قتيبة أن هذا اللون فى الكلام كثيرا ما يقرن بلفظ (كـــاد) التى تقربه من القبول ، وقد طبق هذا على كلام العرب ، ولا ضـــير عنـــده مـــن تطبيق هذا على كلام الله تعالى .

ثالثًا : يذكر ابن قتيبة أحيانًا ــ وخاصة فى القرآن ــ تفسيرًا للآية يخرج بها عن المبالغة التى تحتاج إلى : (كاد) أو (يكاد) مما يقربها مـــن القبـــول ، وهذا أمر يحمد له ويحسب ، ففي قولـــه تعالى : (فما بكـــت علـــيهم الســـماء والأرض) ، وكذلك قولـــه تعالى : (وبلغت القلوب الحناجر) يـــذكر تفســـيرات أخرى يخرج بها بالآية عن حد الغلو الذى ذهب إليه الطاعنون ومال إليه ــ عـــن غير قصد ــ البلاغيون المتأخرون .

يقول ابن قتيبـــة : " ومنه قولـــه تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَـــيْهِمُ السَّـــمَاءُ

(١) ينظر : تأويل مشكل القرآن من ص ١٧٢ ــ ١٧٨ .

وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ (١).

تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن ، رفيع المكان ، عام النفع ، كثير الصنائع : أظلمت الشمس له ، وكسفت القمر لفقده ، وبكته الريح والبرق والسماء والأرض ، يريدون المبالغة فى وصف المصيبة به ، وأنها قد شملت وعمت ، وليس ذلك بكذب ؛ لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه .

وهكذا تراهم يفعلون فى كل ما أرادوا أن يعظموه ، ويستقصوا صفته ، ونيتهم فى قولهم : أظلمت الشمس أي كادت تظلم ، وكسف القمر أي كاد يكسف.

وقال آخر :

الشَّمسُ طالعةٌ ليستْ بِكَاسِفةٍ تبكَي عليكَ نُجُومَ اللَّيلِ والْقمَرَا

أراد : الشمس طالعة تبكي عليك ، وليست مع طلوعها كاسفة النجوم والقمر ؛ لأنها مظلمة ، وإنما تكسف بضوئها فنجوم الليل بادية بالنهار" . (٢)

ثم يقول مرة ثانية حول هذه الآية أيضًا :

" وقد اختلف الناس فى قول الله عز وجل : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ " .

فذهب به قوم مذاهب العرب فى قولهم : بكته الريح والبرق كأنه يريد أن الله عزوجل حين أهلك فرعون وقومه وغرقهم ، وأورث منازلهم وجناتهم غيرهم لم يبك عليهم باك ، ولم يجزع جازع ، ولو يوجد لهم فقد .

(١) سورة الدخان آية ٢٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص١٦٧ ، ١٦٨ .

وقال آخرون : أراد فما بكى عليهم أهل السماء ولا أهـل الأرض، فأقـام السماء والأرض مقام أهلهما كما قال الله تعالى : (واسأل القرية) ... [١]

وقال ابن عباس : لكل مؤمن باب فى السماء يصعد فيه عمله ، وينـزل منه رزقه ، فإذا مات بكى عليه الباب ، وبكت عليه آثاره في الأرض ومصلاه فى السماء ، والكافر لا يصعد له عمل ، ولا يبكي له باب فى السماء ، ولا أثره فـى الأرض . [٢]

فابن قتيبة يرى أن البعض يرى أن الآية تحمل على المبالغة ، والـبعض الآخر يرى أنها من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، بينما يـرى آخرون أن الكلام على حقيقته ويستند فى ذلك على ما ورد عن ابن عباس .

وإذا رجعنا إلى الآية التى حكى ابن قتيبة قول الطاعنين فيها وهي قولـه تعالى : (وبلغت القلوب الحناجر) نجد أنه يسلم لهم فهمهم أن المراد بالقلب هو ذلك العضو المعروف ، والذى إن زال عن موضعه شيئًا مات صاحبه ، والكـلام فيها على حقيقته ، ومن ثم ففي الآية بعدًا لا يقبل ، وأن الذى يقربه من القبـول هو الإتيان بـ (كاد) .

يقول ابن قتيبة تعليقًا على الآية : " وأكثر ما فى القرآن من مثل هذا فإنه يأتي بـ(كاد) فما لم يأت بـ (كاد) ففيه إضمارها ، كقولـه : (وبلغـت القلـوب الحناجر) أي كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق" . [٣]

---

(١) سورة يوسف من الآية ٨٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص١٦٩ ، ١٧٠ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص١٧١ .

وإذا كان كلام ابن قتيبة السابق فيه ما يدل على مجاراتهم فى أن المراد بالقلب هو ذلك العضو المعروف الذى إن زال عن موضعه شيئا مات صاحبه ، وعليه فمعنى الآية لا يقبل إلًا بإضمار (كاد) أي : كادت القلوب أن تبلغ ولكن ذلك لم يكن .

فإنا نجده يتبع هذا الرأي برأي آخر ــ وإن كان قد صدره بما يدل على التقليل ــ مؤداه أن الآية تصوير حي ودقيق لهول الموقف ، ومدى ما وصل إليه هؤلاء من رعب .

يقول ابن قتيبة : " وقد يجوز أن يكون أراد : أنها ترجف من شدة الفزع وتجف ويتصل وجيفها بالحلوق ، فكأنها بلغت الحلوق بالوجيب ، وهم يصفون القلوب بالخفقان ، والنزو عند المخافة والذعر " . (١)

وليت الإمام ــ رحمه الله تعالى ــ وقف عند هذا الرأي ، ورد به على هؤلاء الطاعنين ، فالآية ــ كما قلت سابقًا ــ تصوير دقيق لهول الموقف ، ومن ثم فلا حاجة إلى إضمار (كاد) التى صرَّح بها واعتمد عليها البلاغيون المتأخرون بعد ذلك .

وإذا كان ابن قتيبة قد وقف بهذا اللون من الكلام عند حد المبالغة فقط ، فإن من البلاغين من تجاوز هذا الحد ، فعدَّ مثل هذه الآية من قبيل الغلو كأبي هلال العسكري الذى يقول : " الغلو : تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى درجة لا يكاد يبلغها كقول الله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ﴾ (٢) ...

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٧٢ .

(٢) سورة الأحزاب من الآية ١٠ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ ﴾ [1]بمعنى لتكاد تزول منه " . [2]

وذكر أبو هلال آيات قرآنية أخرى وأشعارًا ذكرها ابن قتيبة من قبل . [3]

بقى لنا بعد ذلك أن نقول : ما ذهب إليه أبو هلال من تسمية هذا اللون من الكلام بالغلو ، وما تعلل به من قبل ابن قتيبة من وجود وسيلة تقرب هذا الكلام من القبول ، وهو اشتماله على (كاد) أو (يكاد) هو ما ارتضاه وسار عليه البلاغيون المتأخرون .

تجد الخطيب القزويني يقول فى إيضاحه " الغلو ... والمقبول منه ما أُدخل عليه ما يقربه من الصحة نحو لفظة يكاد " . [4]

ولم يخرج شراح التلخيص عما ذهب إليه الخطيب أو يعترض على الأقل على عبارته : (وهي ما يقربه من الصحة) اللهم إلا هذه الإشارة من الدسوقي : " قيل : إن المصنف لما مثل بالآية كان ينبغي له أن يقول : منها ما ادخل عليه ما يخرجه عن الامتناع بدل قوله يقربه إلى الصحة تأدبا ؛ إذ صحة كلام الله لا مزيد عليها ، فكيف يقال ما يقربه من الصحة " . [5]

---

(١) سورة إبراهيم من الآية ٤٦ .

(٢) الصناعتين الكتابة والشعر ص٣٩٤ ، تحقيق د/ مفيد قميحة ، طبع : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٣) ينظر : المرجع السابق ص٣٩٤ وما بعدها .

(٤) الإيضاح للخطيب القزويني مع البغية ٤ / ٤٩ طبع : مكتبة الآداب .

(٥) ينظر : شروح التلخيص ٤ / ٣٦٢ ، طبع : دار السرور .

وفى نهاية الأمر أقــول : ليت ابن قتيبة وقف عند الفهم الثاني الذى ذكره وهو أنها تحكى هول الموقف وما فيه من شدة ورعب ، فعدوهم جاءهم من أكثر من جهة ــ كما حكى القرآن الكريم ــ من فوقكم ومن أسفل منكم بجانب ما هــو معهود وهو الأمام والخلف ، عند ذلك زاغت الأبصار ووجبت القلوب ، ووصل أثر وجيبها إلى الحناجر .

وقد ذكر أحد أهل العلم المعاصرين تعليقًا طيبا حول هذه الآية ، والســبب الذى أوقع القدماء ، ومنهم ابن قتيبة فيما وقعوا فيه من محظور ، حين ظنوا أن هذا المعنى يقربه من القبول اشتماله على (كــاد) .

يقول : " والذى أوقع القدماء فى هذا المأزق أنهم فهموا أن المراد مــن القلوب هو شكلها الحسي المادي ... وهذا الفهــم لا أراه صــوابًا ، ودليلــي أن القرآن الحكيم لم يذكر القلب مرادًا منه الشكل الحسي المادي أبدًا ولا فــى آيــة واحدة ، فكل ما فيه من ذكر القلب أو القلوب إنما المراد به الأحوال التى تعتريها وتتوارد عليها من الهدى والضلال ، والرقة والقسوة والعلم والجهل .

... ثم يقول : وإذا تقرر أن القرآن لم يرد قط يذكر القلوب أشــكالها ولا أحجامها المادية ، وإنما يريد الأوضاع التى تتوارد عليها ظهر سوء الفهم الــذى تمسك به القدماء فى آية بلوغ القلوب الحناجر فهم لم يدرجوها فى سلك الغلو إلا لفهمهم أن المراد منها قطعة اللحم المسماه قلبا ؛ وهذا لم يرده القرآن آبدًا .

وإذا بطلت العلة بطل المعلول والفهم الخاطئ باطل ، وكذلك ما يبنى عليه فليس فى الآية غلو ولا إفراط ؛ لبطلان السبب الذى حملهم على عدها غلوًا .

ثم يقول : ولو أن البلاغين القدماء ذهبوا فى هذه الآية مـذهب الراغـب الذى قال [1] : إن المراد من القلوب هنا هو الأرواح ، لأراحوا أنفسهم وأراحونا ، غفر الله لهـم " . [2]

خامساً :رد ابن قتيبة على الطاعنين فى القرآن من جهة التكرار :

تكرار الكلام واحد من جملة الطعون التى حكاها ابن قتيبة عـن هـؤلاء الطاعنين فى بلاغة القرآن الكريم ونظمه فقال حاكيًا عنهم : " وفى تكرار الكـلام فى (قل يا أيها الكافرون) وفى سورة الرحمن ، وفى تكرار الأنباء والقصص من غير زيادة ولا إفادة " . [3]

أي وتكلموا فى تكرار الكلام ، وفى تكرار الأنباء والقصص، ثم تولى الرد عليهم فى باب خصه لذلك ، وذكر أولا ، تكرار الأنباء والقصص ، وأخـذ يـذكر الأسباب التى كانت وراء تكرار الأنباء والقصص والتى منها .. .

أن الله تعالى أنزل القرآن نجومًا فى ثلاث وعشرين سنة ، بفـرض بعـد فرض تيسيرًا على العباد وتدريجًا لهم إلى كمال دينـه .. .

ولو أتاهم القرآن نجما واحد لسبق حدوث الأسباب التى أنزله الله بهـا ، ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين ، وعلى من أراد الدخول فى الدين ، ولبطل معنى التنبيـه ، وفسد معنى النسخ ، لأن المنسوخ يعمل به مدّة من الـزمن ثـم

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٤١١ ، تحقيق / محمد سيد كيلاني ، طبع : مصطفى البابي الحلبي ــ الطبعة الأخيرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

(٢) من قضايا البلاغة والنقد لأستاذي الجليل (رحمه الله تعالى) أ.د/ عبد العظيم المصـطفى ص١١٤ ، ١١٥ ، طبع : مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣٢ .

يعمل بناسخه بعد ، وكيف يجوز أن ينزل القرآن فى وقت واحد ، افعلوا كـذا ولا تفعلـوه ...

ثم يذكر ابن قتيبة أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يبعث إلى القبائل المتفرقـة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناه ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، وقصة لوط إلى قوم .

فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص فى أطراف الأرض ...

كما أنه يقول : ليست القصص كالفروض ؛ لأن كتب رسول الله ـ ﷺ ـ كانت تُنْفَذُ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة ، وعدد أوقاتها ، والزكاة وسننها ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وهذا مالا تعرف كيفيته من الكتاب . (١)

هذه هي أهم أسباب تكرار القصص القرآني التى ذكرها ابن قتيبة ولـيس بخافٍ أن هذه القضية تناولها كثير من العلماء الذين أتوا بعده ، تجد مثلًا القاضي عبد الجبار يرى أن من أهم أسباب تكرار القصص القرآني تسلية الرسـول ـ ﷺ ـ وتثبيت فؤاده بقول فى التنزيه : " وربما قالوا فى قصص الأنبياء لم كرره الله تعالى ؟ وجوابنا أنه تعالى أنزل ذلك تسلية للرسول فيما كان المشركون يأتون به فكان ينزل مرَّة بعد مرَّة ليسليه فى حال بعد حّال ، ولأن التالي يعتبر بذلك اعتبارًا بعد اعتبـار " . (٢)

وهذا ما ذكره أيضًا فى المغني ، ويضيف إلى ذلك أن فى تكرار القصـص إشارة إلى ما يختص به القرآن من فصاحة ، فيقول : " وأن يعرف أهل الفصاحة

(١) ينظر : تأويل مشكل القرآن ص٢٣٢ ـ ٢٣٥ .

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ص٤٤٥ ، نشر وتوزيع النهضة المصرية الحديثة ، بيروت ـ لبنان .

عند تأمل هذه القصص ، وقد أعيدت حالا بعد حال ما يختص به القرآن من رتبة الفصاحة ، لأن ظهور الفصاحة ومزيتها فى القصة الواحدة إذا أعيدت أبلغ منها فى القصص المتغايرة " . (١)

تعرض لهذه القضية أيضًا الإمام فخر الدين الرازي فى نهاية كتابه (نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) تحت عنوان : فساد طعنهم فى القرآن من جهة التكرار والتطويل .

وذكر أن عادة الفصحاء جارية بأنهم يكررون القصة الواحدة فى مواضع مختلفة لأغراض مختلفة تتجدد فى المواضع ، وذلك من الفضائل لا من المعايب وإنما يعاب التكرار إذا كان فى الموضع الواحد .

ثم ذكر نزول القرآن على النبي ــ ﷺ ــ فى ثلاث وعشرين سنة ، كما أن التكرار فيه تسلية لقلب النبي ــ ﷺ ــ وأن ظهور الفصاحة فى القصة الواحدة إذا أعيدت أبلغ منها فى القصص المتغايرة . (٢)

هذا هو أهم ما ذكره الرازي فى مجال الرد على الطاعنين على القرآن الكريم والقول بوجود تكرار فى قصصه ولا يخفي أن أكثر كلامه ذكره ابن قتيبة والقاضي عبدالجبار فى المغني وتنزيه القرآن عن المطاعن .

أما الأمر الثاني الذى حكاه ابن قتيبة عن هؤلاء الطاعنين فى بلاغة القرآن الكريم ونظمه فهو تكرير بعض الآيات القرآنية داخل السورة الواحدة وهم يرون أن بعضه يجزي عن بعض كالتكرير الواقع فى سورة الرحمن (فَبِأَيِّ آلاءِ

(١) ينظر : المغني فى أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار ، ص٣٩٧ وما بعدها .
(٢) ينظر : نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ص٣٨٨ ، تحقيق ودراسة الدكتور / بكري شيخ أمين ، طبع : دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م .

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) .

وقد ردّ ابن قتيبة على هؤلاء الطاعنين مؤيدًا كلامه بما نطق به العربي قديمًا ، وأن الهدف من التكرار ــ غالبًا ــ توكيد المعنى الذى كرر به اللفظ .

كما أنه يرى أن التكرار يكون بتكرار المعنى واللفظ معًا وهو الذى أشار إليه بقوله (وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزي عن بعض .

أو بتكرار المعنى دون اللفظ وهو الذى أشار إليه بقوله : وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين .

أولًا : تكرار المعنى واللفظ معاً :

يقول ابن قتيبة عنه: " وأما تكرار الكلام من جنس واحد ، وبعضه يجزي عن بعض كتكراره في : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ (١) ، وفي سورة الرحمن بقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢) ، فقد أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم وعلى مذاهبهم ، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز ...

وقد يقول القائل فى كلامه : والله لا أفعله ، ثم والله لا أفعله ، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله .

قال الله عزوجل : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ،

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .
(٢) سورة الرحمن آية ١٦ (مكررة) .
(٣) سورة التكاثر ٣ ــ ٤ .

وقال: ﴿ فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ﴾ (١) ، وقال : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (٣) ، كل هذا يراد به التأكيد للمعنى الذى كرر به اللفظ .

وقد يقول القائل للرجل : اعجل اعجل ، وللرامي ارم ارم .

قال الشاعر :

كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لكُمْ كَمْ كَمْ وكَمْ

وقال الآخر :

هَلاَّ سألتَ جموعَ كِنْدَةَ يومَ ولَّوا أينَ أينَا " (٤)

فابن قتيبة يصرح بأن الهدف من التكرير فى كل ما سبق تأكيد المعنى الذى كرر به اللفظ ، ثم يوضح العرض من تكرير قوله تعالى : (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وهو أن الله تعالى فى هذه السورة عدد نعمائه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، ليفهمهم النعم ويقررهم بها .

(١) سورة الشرح آية ٥ ــ ٦ .
(٢) سورة القيامة ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) سورة الانفطار آية ١٧ ، ١٨ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٣٥ ، ٢٣٦ .

وهذا كقولك للرجل أجل أحسنت إليه دهرك وتابعت عنده الأيادي ، وهو فى ذلك ينكرك ويكفرك : ألم أيوئك منزلًا وأنت طريد ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أحملك وأنت راجل ؟ ألم أحج بك وأنت صرورة ؟ أفتنكر هذا ؟ "[1]

ورد ابن قتيبة على هؤلاء الطاعنين وإن جاء سريعًا إلًا أنه كان كافيا فى الرد عليهم ، وهو أن التكرار ليس عيبًا هنا ، وإنما لتأكيد المعنى .

وقد تناول هذه الآيات بشئ من التفصيل كثير من العلماء الذين جاءوا بعده بما لا يسع المقام لذكر كلامهم .

أما الأمر الثاني : وهو تكرار المعنى بلفظين مختلفين والذى رمى الطاعنون القرآن من جهته بالتكرار ، فيرد عليهم ابن قتيبة بأن هذا التكرار ليس عيبًا ، وأن الهدف منه إما إشباع المعنى والاتساع فى الألفاظ ، وإما لزيادة التأكيد.

يقول ابن قتيبة : "وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين فلإشباع المعنى والاتساع فى الألفاظ .

وذلك كقول القائل : آمرك بالوفاء ، وأنهاك عن الغدر، والأمر بالوفاء هو النهي عن الغدر .

وكقوله سبحانه : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [2] والنخل والرمان من الفاكهة فأفردهما عن الجملة التى أدخلهما فيها ، لفضلهما وحسن موقعهما .

(١) تأويل مشكل القرآن ص٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٢) سورة الرحمن آية ٦٨ .

وقولـــه سبحانه : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى ﴾ [١] . وهي منها فأفردها بالذكر ترعيبًا فيها ، وتشديدًا لأمرها ... " . [٢]

واشباع المعنى الذى أراده ابن قتيبة هو التأكيد على الأمر بالوفاء والبعد عن الغدر .

ولما كان النهي عن الغدر يحقق ما يحققه الأمر بالوفاء ، كان من الممكن أن يظن أن فى الكلام تكرارًا ، والواقع أن الأمر على خلاف ذلك ، فـــالنهي عـــن الغدر وإن كان عين الأمر بالوفاء إلاّ أن التكرير يفيد المبالغة فى تحقيـــق الأمـــر المطلوب وشدّة العناية بـــه .

أما قولـــه تعالى : (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) وقولـــه تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى) فهما من باب ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضل ذلك الخاص كما ذكر البلاغيون .

أما الأمر الثاني الذى ذكره ابن قتيبة لتكرار المعنى بلفظين مختلفين فهو زيادة التأكيد .

يقول : " وأما الزيادة فى التأكيد فكقولـــه سبحانـــه : ﴿ يَقُولُونَ بَأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [٣] ، لأن الرجل قد يقول بالمجاز : كلمت فلانا ، وإنما كـــان ذلك كتابا أو إشارة على لسان غيره فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم .

(١) سورة البقرة من الآية ٢٣٨ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٤٠ .
(٣) سورة آل عمران من الآية ١٦٧ .

وكذلك قولـــه : ﴿ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [١] لأن الرجـــل قـــد يكتـــب وغيره الكاتب عنه .

وقولـــه تعالى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [٢] ؛ لأن فى اليمين القوة وشدّة البطش ، فأخير عن شدة ضربه بهـــا .

وقال الشماخ :

إذا مـــا رايـــةٌ رُفِعَـــتْ لمجـــدٍ تلقَّاهـــــا عُرابـــــةٌ بـــــاليمينِ

... وقولـــه : ﴿ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [٣] ، كما تقول : نفس التى بين جنبي " . [٤]

والناظر فى هذه الآية يرى أن العمـــاء الثـــاني اســـتعير لانتفـــاء إدراك المبصرات ، والتعريف فى (الأبصار ، والقلوب ، والصدور) تعريـــف الجـــنس الشامل لقلوب المتحدث عنهم وغيرهم ... والجمع فيها باعتبار أصحابها .

" والتى فى الصدور صفة للقلوب تفيد توكيدًا للفظ (القلوب) ويفيد هـــذا الوصف وراء التوكيد تعريضًا بالقوم المتحدث عنهم بأنهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدة اتصالها بهم إذ هي قارة فى صدورهم " . [٥]

---

(١) سورة البقرة من الآية ٧٩ .

(٢) سورة الصافات آية ٩٣ .

(٣) سورة الحج من الآية ٤٦ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٤١ ــ ٢٤٣ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير للشيخ الطاهر ابن عاشور ٧ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، طبع ونشر : دار سحنون ــ تونس .

سادسا : طعنهم فى بعض الآيات القرآنية في باب الكناية والتعريض:

حكى ابن قتيبة عن هؤلاء الطاعنين فى بلاغة القرآن الكريم ونظمه فقال: " وتكلموا فى الكناية مثل قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [1] ، ومثل قوله : ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا ﴾ [2][3] .

ثم تولى الرد عليهم فى (باب الكناية والتعريض) .

وقبل عرض ما رد به ابن قتيبة على هؤلاء الطاعنين حول هاتين الآيتين الكريمتين أشير إلى أمر مهم ، وهو أن ابن قتيبة فى هذا الباب الذى جعل عنوانه : (الكناية والتعريض) لم يذكر شيئًا عن الكناية الاصطلاحية التى استقر عليها الدرس البلاغي بعده والتى قالوا عنها : لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه هذا اللون بمسماه البلاغي ذكر كثيرًا من شواهده تحت باب الاستعارة ، وكأنه لا يفرق بينهما .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [4] و : ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [5] .

" والفتيل : ما يكون فى شق النواة ، والنَّقِيرُ : النُّقْرَةُ فى ظهرها ، ولم يرد أنهم لا يظلمون ذلك بعينه ، وإنما أراد أنهم إذا حوسبوا لم يظلموا فى

(١) سورة المسد آية ١ .
(٢) سورة الفرقان آية ٢٨ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣٢ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٢ .
(٥) سورة النساء من الآية ٤٩ .

الحساب شيئًا ولا مقدر هذين التافهين الحقيرين " [١] ، وكذلك قوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [٢] .

يقول ابن قتيبة : " فكنى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليه " [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [٤] .

يقول ابن قتيبة : " وأصل اللهو الجماع ، فكنى عنه باللهو ، كما كنى عنه بالسر ، ثم قيل : للمرأة لهو لأنها تجامع " . [٥]

وغيرها كثير من الآيات التى يظهر بوضوح معنى الكناية فيها ، وتعليق ابن قتيبة على هذه الآيات يشير إلى الكناية بل إنه فى الآيتين الأخيرتين صرَّح بها .

أما الكناية التى ذكرها ابن قتيبة فى كتابه فهي اللغوية وليست الاصطلاحية والتى هي بمعنى الكنية وكلام ابن قتيبة فى آية (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) يؤيد ذلك ويدل عليه .

يقول ابن قتيبة حاكيًا طعنهم حول هذه الآية .

" الكناية أنواع ولها مواضع فمنها : أن تكنى عن اسم الرجل بالأبوة لتزيد

---

(١) سورة النساء من الآية ٢٤ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص١٣٨ .
(٣) سورة المدثر آية ٤ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص١٤٢ .
(٥) سورة الأنبياء آية ٧ .

فى الدلالة عليه إذا راسلته أو كتبت إليه ... أو لتعظمه فى المخاطبة بالكنية ... وقالوا : إن كانت الكنية للتعظيم فما باله كنى أبا لهب وهو عدوه ، وسمى محمد ـ ﷺ ـ وهو وليه ونبيه ؟ والجواب عن هذا أن العرب كانت ربما جعلت اسم الرجل كنيته فكانت الكنية هي الاسم .

ثم يقول : وإن كان اسم أبي لهب كنيته ، فإنما ذكره بما لا يعرف إلا به، والاسم والكنية علمان يميزان بين الأعيان والأشخاص ، ولا يقعان لعلة فى المسمى ، كما تقع الأوصاف ، فبأي شئ عرف الرجل جاز أن تذكره به غير أن تكذب فى ذلك" . (١)

فابن قتيبة يريد أن يقول : إن (أبا لهب) وإن كانت كنيته إلا أنه اشتهر بها ، حتى صارت كالعلم فى تحديده وتمييزه عن غيره ، وليس الهدف منها التعظيم .

ثم يذكر ابن قتيبة الآية الثانية التى ذكرها الطاعنون وهي : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ (٢) .

ويقول : " ذهب هؤلاء وفريق من المتسمين بالمسلمين إلى أنه رجل بعينه.

وقالوا لم كنى عنه ؟ وإنما يكنى هذه الكناية من يخاف المباداة ويحتاج إلى المداجاة .

(١) تأويل مشكل القرآن ص٢٥٦ وما بعدها .

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

وقال آخرون : بل كان هذا الرجل مسمى فى هذا الموضع فغير وكنى عنه وذهبوا إلى أنه عمر ، وتأولوا الآية فقالوا : (ويوم يعض الظالم علـــى يديـــه) يعني أبا بكر ــ رضى الله عنه ــ .

(يقول يا ليتني اتخذت من الرسول سبيلا) يعني محمد ــ ﷺ ــ .

(يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانًا خليلا) يعني عمر ــ رضى الله عنه ــ .

(لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني) يعني عليا .

قال أبو محمد : وتقول فى الرد على أولئك : إذ كان غلطهم من وجهة قد يغلطُ فيها من رقَّ علمه ، فأما هؤلاء ففي قولهم ما أنبأ عن نفســـه ، ودل علـــى جهل متأولـــه .

كيف يكون (علي) رحمه الله عليه ذكرًا ؟

وهل قال أحد إن أبا بكر لم يسلم ، ولم يتخذ بإسلامه مع الرسول سبيلا ؟

وليس هذا التفسير بنكر من تفسيرهم ، وما يدعونه مـــن علـــم البـــاطن كادعائهم فى الجبت والطاغوت ، أنها رجلان ، وأن الخمر والميسر رجلان ...

وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : إن " عقبة بن أبي معيط " صـــنع طعامًا ودعا أشراف أهل مكة ؛ فكان رسول الله ــ ﷺ ــ فيهم ، فامتنع مـــن أن يطعم أو يشهد (عقبة) بشهادة الحق ، ففعل ذلك ، فأتاه (أُبيّ بـــن خلـــف) ، وكان خليله فقال : صبأت ؟ فقال : لا ولكن دخل على رجل من قريش فاستحييت أن يخرج من منزلي ولم يطعم .

فقال : ما كنت لأرضى حتى تبصق فى وجهه وتفعل به وتفعل ، ففعل ذلك فأنزل الله هذه الآية عامة ، وهذان الرجلان سبب نزولها .

كما أنه قد كانت الآية والآي تنزل فى القصة تقع وهي لجماعة الناس .

(والمفسرون) على أن هذه الآية نزلت فى هذين الرجلين ، وإنما يختلفون فى ألفاظ القصة .

فأراد الله سبحانه (بالظالم) كل ظالم فى العالم ، وأراد بفلان كل من أُطِيعَ بمعصية الله ، وأرضى بإسخاط الله .

ولو نزلت هذه الآية على تقديرهم فقال : (ويوم يعض الظالم) قارون وهامان ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبي بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبه بن ربيعة ، والمغيرة ، وفلان، وفلان بالأسماء (على أيديهم) يقولون : ليتنا لم نتخذ فرعون ، ونمروذ ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبا جهل ، والأسود ، وفلانا ، وفلانا بالأسماء لطال هذا وكثر وثقل ، ولم يدخل فيه من تأخر بعد نزول القرآن من هذا الصنف ، وخرج عن مذاهب العرب جميعًا ، بل عن مذاهب الناس فى كلامهم .

فكان : (فلان) كناية عن جماعة هذه الأسماء .

وقد يقول القائل : ما جاءك إلاّ فلان بن فلان ، يريد أشراف الناس المعروفين ...

والظالم دليل على جماعة الظالمين كقوله : (ويَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا) [1]، يريد جماعة الكافرين . [2]

(١) سورة النبأ من الآية ٤٠.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٦٠ ــ ٢٦٣ .

فابن قتيبة يرى أن الأولى أن يراد (الظالم) و (فلان) كل من يستحق أن يوصف بهذا الوصف بصفة عامة ، وليس من تطاول عليهم هؤلاء الملحدون المضللون ، ولو قدر أن تحدد فى أشخاص فالأولى فرعون ومن على شاكلته .

يقول بعض أهل العلم من المعاصرين : " ولو أن ابن قتيبة لمح نظم هذه الآية على المستوى العقلي الذى بدر منه فاستوحى الفعل (يعض) وكونه مضارعًا ، وحرف الجر (على) ، والتثنية فى (يديه) ويا ليتني بيا (يا ويلتا) بيا أيضًا وقلب ياء المتكلم ألفا ، وذلك التحقير فى (فلانا) ، والتأكيد له فى قوله (لقد أضلني) لكلا الرجلين .

لو أن ابن قتيبة نظر لذلك كله لأتى بما لم يسبق إليه ومالم يلحق به ، ولكن لا ينبغي أن نحمل عصر ابن قتيبة فوق ما يحتمل " . [1]

(١) البلاغة القرآنية عند ابن قتيبة وأثرها فى الدراسات البلاغية لأستاذي د/ صلاح محمود علي شحاته ص١١١ ، طبع ونشر : المكتبة التوفيقية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

تحت باب التعريض

يحكى ابن قتيبة عن هؤلاء الطاعنين فى بلاغة القرآن أنهم قالوا فى قوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

" هل كان النبي ــ ﷺ ــ يشك فيما يأتيه جبريل ، وكيف يدعو الشاكين من هو على مثل سبيلهم ؟ وكيف يرتاب فيما يأتيه به الروح الأمين . (٢)

وقد رد ابن قتيبة على هؤلاء فى باب التعريض وقد صدّر كلامه عنه بما يدل على مكانته فقال : " العرب تستعمله فى كلامها كثيرًا ، فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف فى كل شئ " . (٣)

يقول ابن قتيبة : " وأما قوله سبحانه (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسال الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، ففي تأويلان :

أحدهما : أن تكون المخاطبة لرسول الله ــ ﷺ ــ والمراد غير من الشكاك لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلهم ، وهم قد يخاطبون الرجل بالشئ ، ويريدون غيره ...

ومنه قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ

(١) سورة يونس الآيتان ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٩ ، ٣٠ .
(٣) سورة الأحزاب آية ١ .

اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

الخطاب للنبي ــ ﷺ ــ والمراد بالوصية والعظة المؤمنون يدلك على ذلك أنه قال : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٢) ولم يقل بما تعمل خبيرا ...

... والتأويل الآخر : أن الناس كانوا فى عصر النبي ــ ﷺ ــ أصنافًا منهم " كافر به " مكذب لا يرى إلاْ أن ما جاء به الباطل ، "وآخر مؤمن به " مصدق يعلم أن ما جاء به الحق .

(وشاك فى الأمر) لا يدري كيف هو ؟ فهو يقدم رجلًا ويؤخر أخرى .

فخاطب الله سبحانه : (هذا الصنف من الناس) فقال : فإن كنت أيها الإنسان فى شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ــ ﷺ ــ ، فسل الأكابر من أهل الكتاب والعلماء الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، مثل : عبدالله ابن سلام ، وسلمان الفارسي ، وتميم الدّارمي وأشباههم ، ولم يرد المعاندين منهم فيشهدون على صدقه ويخبرونك بنبوته ، وما قدمه الله فى الكتب من ذكره " .

والتأويل الأول للآية ذكره كثير من المفسرين الذين أتوا بعد ابن قتيبة ، فأبو حيان يقول : " والخطاب للسامع غير الرسول ، وكثيرًا ما يأتي الخطاب فى ظاهره لشخص والمراد غيره " . (٣)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٥ / ١٩١ ، طبع : دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

وأبو السعود يقول : " وقيل الخطاب للنبي ــ ﷺ ــ والمراد بــه أمتــه ، أو لكل من يسمع أي إن كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا إليــك علــى لســان نبينا " . (١)

وإن كان الزمخشري يرى أن الخطاب فى الآية للنبي ــ ﷺ ــ ولكن على سبيل الفرض والتمثيل يقول : " فإن وقع لك شك مثلا ، وخيل لك الشيطان خيــالا منه تقديرًا ، فاسأل الذين يقرءون الكتــاب " . (٢)

والذى عليه أكثر المفسرين هو التأويل الأول لابن قتيبة من أن الخطــاب للنبي ــ ﷺ ــ والمراد غيره ، وإن كنت لا أرى فرقا بين التأويلين فكلاهما يــدل على أن الخطاب وُجِّه لشخص وأريد غيــره .

سابعا : طعنهم في القرآن الكريم بالتناقض والاختلاف

ومما جاء تحت التناقض والاختلاف : ما حكاه عنهم ابن قتيبة : " وقالوا فى سورة الأنفال حين ذكرها ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قال : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ (٣) .

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ١٧٥ ، طبع : دار إحياء التراث العربي ، الطبعــة الثانيــة ١٤١١هـــ / ١٩٩٠م .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٥٢ .

(٣) سورة الأنفال الآيات ٢ ــ ٥ .

وكما تأتي لتشبيه الشئ ، ولم يتقدم ما يشبه به إخراج الله إياه ". [١]

ويرى ابن قتيبة أن الكلام مردود على كلام سابق ، وأنها تشير إلى ما حدث يوم (بدر) من كراهيتهم للخروج للحرب ، وكذلك تنازعهم فى أمر الغنائم ، واختلافهم مع رسول الله ــ ﷺ ــ فى أمر تقسيمها .

يقول ابن قتيبة : " الكلام مردود إلى معنى فى أول السورة ومحمول عليه وذلك أن النبي ــ ﷺ ــ رأى يوم (بدر) قِلّة المسلمين ، وكراهة كثير منهم للقتال فنَفَّل كل امرئ منهم ما أصاب ، وجعل لكل من قتل قتيلا كذا ، ولمن أتى بأسير كذا فكره ذلك قوم فتنازعوا واختلفوا ، وحاجوا النبي ــ ﷺ ــ فأنزل الله سبحانه: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [٢] يجعلها لمن يشاء (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أي فرقوها بينكم على السواء (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما بعد ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ووصف المؤمنين ثم قال : (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ " .

يريد : أن كراهتهم لما فعلته فى الغنائم ككراهتهم للخروج معك ، كأنه قال : هذا من كراهيتهم كما أخرجك وإياهم ربك وهم كارهون) . [٣]

فابن قتيبة يرى أن الآية فيها تشبيه كراهيتهم لما فعله النبي ــ ﷺ ــ بالغنائم بكراهتهم للخروج معه للقتال .

والواقع أنه مسبوق فيما ذهب إليه بأبي زكرياء يحيى بن زياد الفّراء الذى يقول : " نزلت فى أنفال أهل بدر ، وذلك أن النبي ــ ﷺ ــ لما رأى قِلَّة

(١) تأويل مشكل القرآن ص٣٠ .

(٢) سورة الأنفال من الآية ١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٢٢٠ ، ٢٢١ .

الناس وكراهتهم للقتال قال : من قتل قتيلًا فله كذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا ، فلما فرغ من أهل بدر قام سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله إن نفَّلت هؤلاء ما سميت لهم بقى كثير من المسلمين بغير شئ ، فأنزل الله تبارك وتعالى : (قل الأنفال لله والرسول) يصنع فيها ما يشاء فسكتوا وفى أنفسهم من ذلك كراهية ، وهو قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق).

على كره منهم فامض لأمر الله فى الغنائم كما مضيت على مخرجك وهم كارهون ". (١)

وبمقارنة ما ذكره ابن قتيبة بما ذكره الفرّاء يظهر بوضوح أن ابن قتيبة لم يزد على ما قاله الفراء شئ ، سوى أن حكاها عن الطاعنين فى بلاغة القرآن.

ذكر هذه الآية بعد ذلك الخطابي " وقال فى الآية وجوه ذكرها أهل التفسير كلها محتملة ، ثم قال : (يريد أن كراهتهم لما فعلته فى الغنائم ككراهتهم فى الخروج معك " . (٢)

والخطابي لم يزد على ما قاله الفرّاء وابن قتيبة شيئا .

كذلك ذكر أبو السعود ما ذهب إليه ابن قتيبة وصدر به كلامه . (٣)

ومما يدخل تحت التناقض والاختلاف ما حكاه عنهم ابن قتيبة من الطعن فى بلاغة القرآن ونظمه،أنه أحيانًا يذكر لفظ المثل ولا يذكر ما من أجله جاء

---

(١) معاني القرآن للفرّاء ١ / ٤٠٣ ، تحقيق / أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجار ، طبع: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

(٢) ينظر : بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم ص٤٩ ، ٥٠ ، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، دكتور / محمد زغلول سلام ، طبع : دار المعارف ــ الطبعة الرابعة .

(٣) ينظر : تفسير أبو السعود ٤ / ٥ .

المثل.

يقول ابن قتيبة: " وقالوا فى قولـــه فى الرعد : (مَّثَلُ الجَنَّةِ الَتِـــي وُعِـــدَ المُتَّقُونَ) [١] .

أين الشئ الذى جعلت له الجنة مثلا :

قالـــوا : وقـــال فى موضع آخر : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْـــتَمِعُوا لَهُ) [٢]ولم يأت به " . [٣] .

ويرد عليهم ابن قتيبة فيقول : " وأما قولـــه : مثل الجنـــة التـــى وعـــد المتقون) ولم يأت بالشئ الذى جعل له الجنة مثلا ، فإن أصل المثل ما ذهبوا إليه من معنى المِثْل ، تقول : هذا مِثْلُ : الشئ ومَثَلُهُ ، كما تقول : هذا شِـــبْهُ الشـــئ وشَبَهَهُ ، ثم قد يصير المِثْل بمعنى صورة الشئ وصفته ، وكذلك المثال والتِّمثـــال فأراد الله بقولـــه (مثل الجنة) أي صفتها وصورتها ...

ونحو قولـــه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ ثم قال : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ ﴾ [٤] ، أي ذلك وصفهم ؛ لأنه لم يضرب لهم مثلا فى أول الكلام ، فيقول : (ذلـــك مـــثلهم) وإنما وصفهم وحالهم ، ثم قال : (ذلك مثلهم) أي : وصفهم " . [٥]

---

(١) سورة الرعد من الآية ٣٥ .

(٢) سورة الحج من الآية ٧٣ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣١ .

(٤) سورة الفتح من الآية ٢٩ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٨٣ ، ٨٤ .

فابن قتيبة يرى أن المثل فى آية سورة (الرعد) بمعنى الصفة أي صفة الجنة التى وعد المتقون ، وما رآه يؤيده الاستعمال اللغوي للكلمة ، ففي لسان العرب لابن منظور " قال الجوهري ومثل الشئ أيضًا صفته قال ابن سيده وقوله عز من قائل (مثل الجنة التى وعد المتقون) قال الليث : مثلها هو الخبر عنها وقال أبو إسحاق : معناه صفة الجنة " . (١)

يضاف إلى ما ذكره ابن قتيبة من أن المثل هنا بمعنى الصفة أن الله تعالى ذكر بعض صفاتها فقال (تجري من تحتها الأنهار) ثم قال : (أكلها دائم وظلها).

وكذلك الشأن فى الجزء الأول من سورة الفتح الخاص بالتوراة (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ذلك مثلهم فى التوراة) أي وصفهم فى التوراة ، وقد انتهى الحدث عن التوراة ، ثم بدأ كلام جديد فقيل : (ومثلهم فى الإنجيل أي صفتهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه) ولا يخفي أن الأمر قائم على التشبيه والكاف وسيلته وأداته .

أما آية سورة (الحج) : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ..) والتى قال عنها الطاعنون أن ثم تناقضا فيها حيث ضرب المثل ولم يأت به ، [أي ضرب المثل ولم يأت بما مثل له] فالأمر يختلف عما سبق تمامًا ، والمثل هنا يختلف عن المثل فى سورتي (الرعد والفتح) .

وقد رد ابن قتيبة ــ رحمه الله ــ عليهم فى اعتراضهم فقال : " لم يأت به لأن فى الكلام معناه ، كأنه قال : يا أيها الناس مثلكم مثل من عبد آلهة اجتمعت لأن تخلف ذبابا فلم تقدر عليه ، وسلبها الذباب شيئا فلم تستنفذه منه " . (٢)-

(١) لسان العرب (مثل) ٤١٣٣/٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٨٤ .

وكلام ابن قتيبة يشير إلى أن الآية تقوم على التشبيه التمثيلي حيث شبه حالهم بحال من عبد آلهة اجتمعت لأن تخلق ذبابا فلم تقدر عليه ــ مع ضعفه ــ وإن سلبها ذلك الضعيف شئً لا تستطيع رده ، وفى هذا دلالة على تناهي ضعفها ولذلك قال تعالى : (ضعف الطالب والمطلوب) .

ويمكن أن يكون الكلام من سبيل الاستعارة المكنية التمثيلية حيث شبه هيئة الأصنام المتعدد المعبودة من دون الله بهيئة ناس تعذر عليهم خلق أضعف المخلوقات وهو (الذباب) ، " وقد دل إسناد نفي الخلق إليهم على تشبيههم بذوي الإرادة لأن نفي الخلق بمقتضى محاولة إيجاده " [1] ، وحذف المشبه به ودل عليه بذكر لازم من لوازمه وهو (لن يخلقوا) و (وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنفذوه منه) .

ومما جاء تحت ما ادعى على القرآن بالتناقض والاختلاف :

ما حكاه ابن قتيبة عن هؤلاء الطاعنين أنهم قالوا : " فأين قوله (وإن خفتهم ألا تقسطوا فى اليتامى) من قوله : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ . [2] [3]

ثم رد عليهم فقال : " وأما قولهم : أين قوله (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) من قوله : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ فهل شئ أشبه بشئ أليق به من أحد الكلامين بالآخر ؟!

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ٧/ ٣٤٠ .

(٢) سورة النساء من الآية ٣.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٢٨ .

والمعنى : أن الله تعالى قصر الرجال على أربع نسوة وحرّم عليهم أن ينكحوا أكثر منهن ؛ لأنه لو أباح لهم أن ينكحوا من الحرائر ما أباح من مِلْك اليمين ــ لم يستطيعوا العدل عليهن بالتسوية بينهن ــ فقال لنا : فكما تخافون إلا تعدلوا بين اليتامى إذا كلفتموهم ، فخافوا ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهم ، فانكحوا اثنين ، وثلاثا وأربعا ، ولا تتجاوزوا ذلك فتعجزوا عن العدل " . (١)

والواقع أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها تمامًا ، وقد قيل لما نزلت هذه الآية فى اليتامى ، وفى أكل أموالهم بغير حق ، أخذ الأولياء يتحرجون من أكل أموالهم ، وكانوا فى نفس الوقت لا يتحرجون من ترك العدل بين النساء ، فقيل لهم : إن خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى ، فخافوا أيضًا ترك العدل بين النساء .

يقول العلامة أبو السعود : " إن خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتحرجتم منها ، فخافوا أيضًا ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات ؛ لأن من تخرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب عنه " . (٢)

(١) تأويل مشكل القرآن ص٧٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ / ١٤٢ .

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء ، وخاتم الرسل سيدنا محمد إمام البلغاء ، وسيد الفصحاء ، من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وعصمه من الخطأ والزلل ، وألهمه الصواب ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد ، هذه الصحبة المباركة مع الإمام ابن قتيبة (رحمه الله) والتي كانت حول أسمى هدف ، وأنبل غاية ، ألا وهي الذود عن كتاب الله تعالى ، ودفع مطاعن الطاعنين ، وكيد الملحدين من الشعوبيين الحاقدين ، فقد اهتديت إلي نتائج يمكن إجمالها فيما يلي :

- أن الإمام ابن قتيبة (رحمه الله) يعد في مقدمة الذين تصدوا للرد على هؤلاء الطاعنين ، وأنه وضع كتابه (تأويل مشكل القرآن) لهذا الغرض ومقدمة الكتاب خير شاهد على ذلك .
- أن مجمل هذه الطعون راجع إلي عدم الفهم بطبيعة اللغة العربية ، وأسرار تراكيبها ، وطرق آدائها ؛ لذا فقد اشترط ابن قتيبة على من يتصدى لرد مثل هذه الطعون أن يعد لهذا الأمر عدته ، وأن يكون على معرفة تامة بمذاهب العرب في كلامهم ، وافتنناهم في أساليبهم ، وهذا ما تحقق في الإمام ابن قتيبة (رحمه الله) وآية ذلك أنه دائما يعضد ردوده على هؤلاء الطاعنين بما ورد عن العرب شعرًا ونثرًا .
- أبطل ابن قتيبة دعوى الطاعنين الذين أنكروا المجاز في القرآن ؛ لإتهامه بالكذب الذي يقوم على تغيير الحقيقة ، وكان مستنده في ذلك ما نطق به العرب قديمًا .

- لم يرتض ابن قتيبة ما ذهب إليه المعتزلة من القطع بأن الآيات التي تسند الكلام إلي الخالق ، وتصف حوارا بينه وبين الأشياء لا بد من حملها على المجاز ؛ إذ إنه يرى أنه ليس هناك ما يمنع من حمل مثل هذه الأشياء على الحقيقة مستدلًا على ذلك ببعض الآيات القرآنية ، وأمر سيدنا سليمان ــ عليه السلام ــ مع الهدهد ، وما كان يحدث مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من نطق الذراع ، وشكوى البعير .
- أخذ ابن قتيبة على بعض أهل الكتاب حملهم بعض الألفاظ على حقيقتها ، ورد عليهم بما جاء في كتاب الله تعالى ، وما ورد عن العرب .
- كان ابن قتيبة موفقا في رده على الطاعنين في قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ حين بين أن (الذوق) ليس هنا على حقيقته وإنما هو بمعنى الاختبار والابتلاء ، وهذا ما اعتمد عليه المتأخرون في توضيح معنى الاستعارة في الآية .
- كما لوحظ عليه أنه وسَّع دائرة الاستعارة فأدخل في دائرتها ما عده المتأخرون بعد ذلك من باب المجاز المرسل ، أو الكناية ، أو التشبيه ، أو المشاكلة وإن كان البحث قد التمس له العذر في ذلك .
- في حديث ابن قتيبة عن المبالغة ، أفصح ابن قتيبة عن رأيه الذي يرتضه وهو أنه يستحسن هذا اللون من الكلام الذي يقوم على المبالغة في إثبات الصفة .

وعند حديثه عن قول الله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرِ ﴾ أخذ البحث على ابن قتيبة مجاراته للطاعنين على هذه الآية من حمل القلب على معناه الحقيقي ، وأن المراد به تلك القطعة من اللحم ، وأن فهمه هذا أوقعه هو ومن جاء بعده في محظور ؛ وهو عد مثل هذه الآية من

قبيل الغلو الذي يحتاج إلي ما يقربه من القبول ، وقد اقتضى البحث الرأي الثاني لابن قتيبة مؤيدا ذلك بما ذهب إليه بعض أهل العلم المعاصرين.

- في حديث ابن قتيبة عن تكرار القصص القرآني أثبت البحث تأثر من جاء بعده بكلامه كالقاضي عبدالجبار وفخر الدين الرازي ، وإن كانت لهم إضافات تحسب في هذا المجال .
- في حديث ابن قتيبة عن الكناية والتعريض ، أشار البحث إلي أن ابن قتيبة لا يفرق بين الكناية اللغوية والكناية الاصطلاحية ، كما أنه كان موفقا في رده على الطاعنين على الكناية في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ .

المصادر والمراجع

١ــ أثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور/ عبدالقادر حسين طبع : دار نهضة مصر .
٢ــ أسرار البلاغة . عبدالقاهر الجرجاني تحقيق : هـ ــ ريتر . طبع مكتبة المثنى بغداد ــ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
٣ــ الإيضاح للخطيب القزويني مع البغية . طبع مكتبة الآداب .
٤ــ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للحافظ جلال الدين السيوطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبع : دار الفكر الطبعة : الثانية سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
٥ــ البلاغة القرآنية عند ابن قتيبة وأثرها في الدراسات البلاغية للأستاذ الدكتور/صلاح محمود علي شحاته ، طبع المكتبة التوفيقية سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
٦ــ بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق: محمد خلف الله أحمد ، د/ محمد زغلول سلام . طبع : دار المعارف . الطبعة : الرابعة .
٧ــ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . طبع : المكتبة السلفية الحديثة ــ المدينة المنورة.
٨ــ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة . شرح : السيد أحمد صقر . طبع : دار التراث . الطبعة : الثانية سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .
٩ــ تفسير أبو السعود . طبع : دار احياء التراث العربي الطبعة : الثانية سنة ١٤١١هـ/١٩٩٠م .
١٠ــ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي . طبع : دار الفكر ، الطبعة : الثانية سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
١١ــ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشو. طبع ونشر: دار سحنون تونس.
١٢ــ تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبدالجبار . طبع ونشر: دار النهضة الحديثة ــ بيروت .

١٣ــ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جنى ــ طبع : دار الهدى للطباعة والنشر (بيروت) .
١٤ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي دار إحياء التراث (بيروت) الطبعة :الرابعة سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
١٥ــ شروح التلخيص ــ طبع : دار السرور (بيروت) .
١٦ــ الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال العسكري . تحقيق دكتور/ مفيد قميحة . طبع : دار الكتب العلمية (بيروت) الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٧ــ الصورة في التراث النقدي والبلاغي د/ جابر عصفور طبع : دار المعارف سنة ١٩٨٠م .
١٨ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ، تحقيق وتعليق : الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد ــ طبع : دار الرشاد الحديثة من دون تاريخ .
١٩ــ الفهرست لابن النديم ، نشر : دار الفكر العربي .
٢٠ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري . طبع ونشر : مصطفى البابي الحلبي . الطبعة : الأخيرة سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
٢١ــ اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير الجزري . دار صادر بيروت سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
٢٢ــ لسان العرب لابن منظور . طبع : دار المعارف .
٢٣ــ المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع للدكتور/ عبدالعظيم المطعني الطبعة الأولى نشر : مكتبة وهبة .
٢٤ــ المطول لسعد الدين التفتازاني . طبع : مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ.
٢٥ــ معاني القرآن للفراء . تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجار . طبع : الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠م .

٢٦ــ المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبدالجبار (إعجاز القرآن) الجزء السادس عشر . تحقيق وتقويم أمين الخولي . طبع : دار الكتب المصرية سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .
٢٧ــ مفتاح العلوم للسكاكي ، تحقيق : تعيم زرزور . دار الكتب العلمية بيروت . الطبعة : الثانية سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
٢٨ــ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني . تحقيق :محمد سيد كيلاني طبع : مصطفى البابي الحلبي ــ الطبعة : الأخيرة سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م.
٢٩ــ من قضايا البلاغة والنقد للدكتور/ عبدالعظيم المطعني . طبع : مكتبة وهبة الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .
٣٠ــ مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية للدكتور/ عبدالسلام عبدالحفيظ طبع: دار الفكر العربي . الطبعة : الأولى سنة ١٩٧٨م .
٣١ــ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازي تحقيق ودراسة د/ بكري شيخ أمين ــ طبع : دار العلم للملايين الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م .
٣٢ــ وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان . تحقيق د/ إحسان عباس . طبع: دار الثقافة . بيروت سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .